تاريخ المصريين ٤٢

تكوين مصر
عبر العصور

بقلم
محمد شفيق غربال



تاريخ المصريين ٤٢

تكوين مصر
عبر العصور

بقلم
محمد شفيق غربال



١٩٩٠

الاخراج الفنى وتصميم الغلاف : أسامة سعيد

● سلسلة من عشرة أحاديث أذاعها باللغـة الانجليزية من دار الاذاعة المصرية

محمـــد شفيق غربال

ونقلها الى اللغة العربية بمعاونة محمد رفعت

تقديم

أود فى البداية أن أشكر السفير أشرف غربال ، الذى أذن لى باصدار طبعة ثانية من هذا الكتاب البالغ الأهمية : « تكوين مصر » للمؤرخ العظيم الأستاذ محمد شفيق غربال ٠

لم يكن محمد شفيق غربال مؤرخا عاديا من المتخصصين فى عصر معين من عصور تاريخ مصر ، على الرغم من أنه يعد مؤرخا للتاريخ الحديث ، وانما كان موسوعيا ، بمعنى أن اهتماماته العلمية تجاوزت التاريخ الحديث تتبعا لتاريخ مصر عبر العصور ، حتى العصر الفرعونى ٠

ومن هنا فان ما قدمه فى كتابه « تكوين مصر » يعد رؤية بانورامية شاملة لتاريخ مصر عبر العصور من منظور فلسفي ، ربما كان متأثرا فيه بأستاذه المؤرخ والفيلسوف البريطانى أرنولد توينبى ، الذى لم يقفه عند عصر معين ، أو بلد معين أو حضارة معينة ، وانما درس كل الحضارات ٠

وهذه الرؤية البانورامية التى قدمها المؤرخ محمد شفيق غربال فى كتابه « تكوين مصر » ، يتعذر على غيره من المؤرخين تقديمها بالضرورة ، لارتباطهم بتخصصاتهم العلمية فى الحقب والعصور الزمنية المختلفة ٠

وأهمية هذه الرؤية التاريخية تتمثل فى الحيز الصغير الذى صاغها فيه ، والذى لا يتجاوز مائة صفحة من كتاب متوسط القطع ٠ وهو عمل تحليلى اعجازى لا يمكن لغير محمد شفيق غربال القيام به ٠

وقد خدمت الظروف المؤرخ محمد شفيق غربال فى تقديم هذه الرؤية حين دعى لالقاء عشرة أحاديث باللغة الانجليزية عن تاريخ مصر ، توجه من الاذاعة المصرية للعالم الخارجى ٠ فكانت تلك هى الفرصة التى انتهزها لتقديم هذه الرؤية البانورامية الشاملة ٠

وتعميما للفائدة فقد قام بنقلها الى اللغة العربيــة بمعاونة محمد رفعت وأصدرتها وزارة الارشاد القومى فى كتيباتها فى عام ١٩٥٧ • وقد نفــدت الطبعة فى وقت قصير ، ولم يقدر لها اعادة الطبع حتى الآن ، رغم أهمية العمل الجليل •

ولما كانت احدى الخدمات العلمية التى تقدمها هذه السلسلة عن « تاريخ المصريين » هى اعادة طبع الكتب التاريخية الهامة التى نفدت طبعاتها ، فقد كنت حريصا على الاتصال بالسفير أشرف غربال للحصول على موافقته على اصدار طبعة ثانية من « تكوين مصر » • وقد رحب بذلك مشكورا •

اننى أدعو القارىء الكريم للاستمتاع بهذه الرؤية التاريخية لتاريخ مصر عبر العصور ، لمؤرخ عظيم ، قد نتفق معه أو نختلف ، ولكننا نكن له الاجلال والاحترام باعتباره أستاذ الجيل من الأساتذة ، على رأسهم المرحوم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم •

والله الموفق •

رئيس التحرير

أ • د • عبد العظيم رمضان

مصر هبة المصريين

هذا الحديث بداية سلسلة من الأحاديث ترمى الى عرض متصل لتاريخ مصر خلال العصور الماضية ، وموضوعها • تكوين مصر • وسوف نسلك الى ذلك طريقين :

وسنحاول أول الأمر أن نعالج نواحى مختارة ، وموضوعات منتخبة ، مثال ذلك : التفاعل فى تاريخ مصر بين مبدأى الاستمرار والتغير • وعوامل التماسك الاجتماعى ، ومكان الفرد فى المجتمع ، وأوجه التباين بين المدينة والريف •

ثم نعود فنعالج الموضوع بطريقة أخرى ، أى من

ناحية دراسة اتصالات مصر بالمجتمعات الأخرى الكبيرة ، وكيف أثرت مصر فى عالم العهد القديم ، وفى الحضارة الهيلينية والمسيحية ثم الاسلام فالعالم الغربى ، وكيف تأثرت بكل هؤلاء ٠

وقد اتخذت عنوانا لحديثى الأول : « مصر هبة المصريين » ٠ وليس مرد ذلك إلى معارضة القول المشهور لأبى التاريخ ــ هيرودوت ــ حبا فى المعارضة ، ولكن لتوكيد الناحية أو الزاوية التى سوف نعالج منها الموضوع ٠ ذلك أننى أريد أن أؤكد عمليات الخلق والنمو والمحافظة التى نوجزها فى العنوان : « تكوين مصر » ٠ كما أريد أن أؤكد أن هذا «التكوين» كان من صنع جماعة من الناس ، ــ المصريين ــ ومن ثم كان العنوان : « مصر هبة المصريين » ٠ وأخيرا أريد أن أؤكد مافى هذا النتاج ، نتاج هذا الخلق ــ مصر ــ من صفات الشخصية والرسوخ والانفراد بالذات ٠ هذا النتاج الذى أثر بدوره فى تكوين المصريين ٠ ولن تكون مصر التى نعنى بها مصر فى عصر معين ، بل خلال العصور كلها ، وهذا على الرغم من أننى أعرف أنه ليس فى مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات كافة ، اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة :

ألا وهى العصر الفرعونى ثم اليونانى والرومانى فالاسلامى ثم العصر الحديث ، دع عنك الاحاطة بها جميعا • بيد أن الاخصائى والقارىء غير الاخصائى كلاهما يجد متعة ذهنية ومغنما فى آن واحد لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص ، الطريق الضيق ، واضعا نصب عينيه أن هناك « مصر » دائما ، وأنها تسمو فوق هامات الحقب والعصور •

ولكن هل هنالك حقا شىء كهذا ؟ هل هناك ما يبرر استخدامنا مدلولات : « مصر » و « الصين » وما اليها ؟ وهل استخدام تلك المدلولات لكى تمثل شيئا ماديا أمر مشروع ؟ أم أن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تسمية ، أم يكون من نسج الخيال ، أو الوهم ؟

ليس هنالك شىء من ذلك • ان مصر أرض شكلتها الطبيعة • وشكلها الانسان شيئا له ذاتيته وأهميته ، وهى وطن مجتمع من بنى الانسان تربط بعضهم ببعض روابط مادية وأدبية ، انها وطن مجتمع مغاير لمجتمعات بشرية أخرى •

ولنتناول الآن «المصريين» الذين قلت ان مصر كانت هبتهم •

لن ألقى بالا للمسائل المتعلقة بأصلهم أو جنسهم ، ذلك لأني أعنى بالمصرى كل رجل يصف نفسه بهذا الوصف ، ولا يحس بشيء ما يربطه بشعب آخر . ولا يعرف وطنا له غير هذا الوطن مهما كان أسلافه غرباء عن مصر فى واقع الأمر .

ومما هو جدير بالذكر أنه مهما تعددت الأصول فقد كان هناك طابع « مصرى » تشكل فى هذه البيئة المصرية ، ولست أعنى بالطابع السمات الجسمانية ، بل أعنى موقفا معينا من الحياة .

فلا يعنينى اذن أن أبحث فى بقعة ما من بقاع مصر عمن يسمونهم ذرارى قدماء المصريين . وبعض من يعنيهم هذا البحث يظنون أنهم يعثرون عليهم فى ريف مصر ـ على افتراض أن الريف كان أقل نواحى المجتمع المصرى تأثرا بالتغير والتبدل، أو لأن الريف كان الأرض المنعزلة التى يلجأ اليها القوم ابتغاء النجاة من الغزاة الأجانب . ولكن الحقيقة هى أن الريف كان على عكس ذلك تماما ، فهو البقعة التى استوطن فيها مرتزقة المحاربين من الاغريق، وكذلك رجال القبائل من العرب، وبدو الصحراء ، وأن الريف ـ كما سأشير اليه فيما

بعد ـ كان على الدوام المفترس للبشرية المصرية ، المفترس النهم الذى لا يشبع ·

وآخرون ممن يعنيهم هذا البحث يظنون أنهم يجدون بغيتهم فى طائفة « أقباط » مصر · واحتمال وجودهم في هؤلاء ، مثل احتمال وجودهم في غيرهم ·

وليكن المصريون الأوائل من يكونون ، وليكن تأثر سلالتهم بمن وفد على بلادهم ، واختلط بهم كثيرا أو قليلا ، فالذى يعنينا الآن أن نبين أن « مصر هبة المصريين » ·

واني لأدرك تمام الادراك ــ وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ــ أن النيل منبع حياتنا ، وأن مصر ما هى الا الأراضى الواقعة على ضفتي النهر ، وأن ليس لها من حدود الا المدى الذى تصل اليه مياه النهر ·

ومع ذلك فان المصريين هم الذين خلقوا مصر · تأمل النيل مجتازا آلاف الأميال من خط الاستواء الى البحر الابيض ، هل تجد على طول مجراه الا مصرا واحدة ؟ ان هبات النيل كهبات الطبيعة سواء بسواء ، طائشة عمياء ، اذا ما تركت دون ضبط ، فانها تدمر كل شيء ، وتخلف مستنقعات الملازيا الوبيلة ·

والانسان وحده هو الذى يستطيع أن يجعل من هذه الهبة نعمة لا نقمة • وقد كان ذلك ما عمله الانسان فى مصر ، فمصر هبة المصريين •

كيف حدث ذلك ؟ ان الأستاذ « آرنولد توينبى » يتحدث عن هذا فى معرض كلامه بما سماه « التحدى والاستجابة » ، وهذا موجز كلامه : ان هؤلاء المصريين الأوائل ـ شأنهم فى ذلك شأن بعض الشعوب الأخرى ـ واجهوا بعد نهاية عصر الجليد التحول الطبيعى العميق فى مناخ جزء من افريقية وآسيا نحو الجفاف •

هذا هو التحدى ، فماذا كانت الاستجابة ؟ من الأقوام الذين واجهوا التحول من لم ينتقل من مكانه ، ولم يغير من طرائق معيشته ، فلقى جزاء اخفاقه فى مواجهة تحدى الجفاف ـ الابادة والزوال • ومنهم من تجنب ترك الموطن ولكنه استبدل طريقة معيشته بأخرى ، وتحولوا من صيادين الى رعاة رحل ، عرفتهم المراعى الافراسية • ومن هؤلاء من رحل نحو الشمال، وكان لزاما عليهم أن يواجهوا تحدى برد الشمال الموسمى ، ومن الأقوام من انتقل صوب الجنوب نحو المنطقة الاستوائية المطيرة • وهنالك أوهن قواهم جو

تلك المنطقة المطير الجارى على وتيرة واحـدة ، وأخيرا منهم أقوام استجابوا لتحدى الجفـاف بتغيير موطنهـم وتغيير طرائق معيشتهم معا ٠

وكان هذا الفعـل المزدوج ، الذى قل أن نجـد له مثيلا ، هو العمل الارادى الذى خلق مصر كما عرفهـا التاريخ ٠

هبط أولئـك الرواد الأبطال ، بدافع الجـرأة أو اليأس ، الى مستنقعات قاع الوادى ، وأخضعوا طيش الطبيعة لارادتهم ، وحولوا المستنقعات الى حقول تجرى فيها القنوات والجسور ٠ وهكذا استخلصت أرض مصر من الأجمة التى خلقتها الطبيعة ، وبدأ المجتمع المصرى قصة مغامراته الخالدة لتستقيم له أمور دنيـاه وأمور أخراه ٠

ويظن العلمـاء أن المستنقعات التى تحـكم فيهـا المصريون الأوائل هذا التحـكم الحاسم كانت لا تختلف كثيرا عما هو قائم الآن فى منطقة السدود فى السودان بل ان العلماء يظنون أن أسلاف القوم الذين يعيشـون الآن فى تلك المنطقة كانوا يقطنون فيما مضى ما يعرف الآن بصحراء ليبيا ، جنبا الى جنب مع مبدعى الحضارة

المصرية ، عندما استجاب هؤلاء لداعى الجفاف . واختاروا لأنفسهم أن يتخذوا خطة بالغة نهاية الخطورة • والظاهر أن المصريين حين فعلوا ذلك آثر جيران لهم اليسرى وولوا وجوههم نحو الجنوب ، نحو بيئة طبيعية تتفق والبيئة التى ألفوها ، والتى أصابها من التحول ما ألزمهم أما بمغادرتها واما بتغيير أساليب حياتهم • وقد اختاروا مغادرة الموطن الى موطن جديد، يستطيعون فيه ممارسة شئون معاشهم على الوجه الذى ألفوه ، وتم لهم هذا فى المنطقة الحارة من السودان فى دائرة الأمطار الاستوائية • ولا يزال أحفادهم من الدنكة والشلوك وغيرهم يعيشون فيها حتى يومنا هذا، كما كان يعيش آباؤهم الأولون • وقد أوضح الأستاذ «تشيلد» ما بين هؤلاء القوم المعاصرين وقدماء المصريين من شبه فى القوام والسمت ، ونسب أجزاء الرأس ، واللغة ، والملبس • ويضيف الى ذلك قوله : «ويبدو أن النمو الاجتماعى عند القبائل التى تقطن أعالى النيل وقف عند موضع تمكن المصريون من اجتيازه قبل بدء العصور التاريخية • ولدينا الآن فى أعالى النيل « متحف حى » يكمل أناسه آثار ما قبل التاريخ فى مجموعاتنا الأثرية فيحييها •

ولكن لا يزال علينا أن نسـأل : لم اختلف مسـلك المصريين الأوائل عن مسـلك اخوانهم آسـلاف الدنكة والشلوك ؟ وفى هذا المقام يتحدث الأستاذ « توينبى » عن نصيب « القلة الخالقة » فى نشأة المدنية • ويبـدو أننا لابـد أن ننتهى الى أن نعزو ما حـدث الى اقتران ظرفين : أحدهما : كون البيئة التى تحدت الانسان لم تكن هينة لينة ، كما لم تكن قاسية مثبطة بل كانت بين بين • والآخر : اتفاق وجود الرجل أو الرجال الموهوبين الذين يقودون شعبهم فى السـاعة الملائمة الى مغامرة كبرى من مغامرات الخلق والتكوين •

وليكن التفسير ما يكـون ، فان مصر ، مصر التى تشكلت على هذا النحو المفاجىء المثير ، قد سيطرت هى أيضا على مصائر أبنائها ، واقتضتهم ثمن بقائها عـلى الشكل الذى صنعوه •

هذا هو موضوعنا •

الاستمرار والتغيير فى تاريخ مصر

« ان التفاعل الحادث بين المبدأين المتقابلين ـ مبدأ الاستمرار ومبدأ التغير ـ يكون مادة التاريخ • فما يبدو فى التـاريخ مسـتمرا لا يخلـوا أبدا من تغيير خفى دقيق • وما من انقلاب مهما كان فجائيـا ومهما كان عنيفاً استطاع أن يقطع تماما صلة الاستمرار بين الماضى والحاضر » هذه فقرة مقتبسة من بحث للأستاذ « كار » فى تقدير صلة الثورة الروسية بالتاريخ الروسى •

وانا لنجد تأييدا لمـا ذهب اليه الأستاذ « كار » فى بحثه هذا اذا ما ألقينا نظرة فاحصة سريعة على تفاعل هذين المبدأين فى تاريخ مصر •

والتغيرات التى سنعرض لها فى حديثنا الحالى كانت فى أغلب الأمر اجتماعية وثقافية ، وبما أننا سندرسها فى مجتمع معين ـ هو مصر ـ فلسنا فى حاجة الى أن ندخل فى نطاق البحث ما تصوره بعض فلاسفة العصور القديمة والوسطى والحديثة من أطوار كبرى مرت فيها البشرية ، من قبيل تصوير « هسيود » لعصور الذهب والفضة والحديد ، أو ذاك النسق الذى رسمه « أوجست كونت » لتقدم الجنس البشرى من طور الى آخر • أو أطوار الكون والفساد المشهورة التى تخيلها المفكرون اليونان • تلك التصورات والتخيلات لها قيمتها من حيث كونها وسائل لترتيب الحقائق والظواهر فى شكل منظم ، ولكنها لا تعين كثيرا على ايضاح المشكلات المتعلقة بمجتمع معين •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لن أتخذ من الاستمرار والتحول مرادفا لارتقاء المدنية أو السلطان وتدهورهما ، أو كما عبر « شبنجلر » بقوله : « مولد المدنية ثم نموها ، فنضوجها ، وأخيرا انحلالها فزوالها » • وقد سما الأستاذ « توينبى » بدراسته التغير ومظاهره الى أرفع مراتب المجاهدة الروحية • ولكنه لا يقبل أن يكون ما سماه « دول العصبيات المحلية » مجالات صالحة

لعمل المؤرخ . ولكن هل نستطيع حقا أن نغفلها على هذا النحو السهل ؟ وبعد، هل يوجد ماض يعتد به شعب من الشعوب سوى ماضيه ، ماضي وطنه ، ماضي عصبيته المحلية مهما كان شأنه ضئيلا بالنسبة الى ماضي الانسانية ، ومهما كان أفقه محدودا ضيقا ؟

أما عن منهجي فلا أرى بأسا في ألا أستخدم مفتاحا واحدا ألج به عالم التغير في التاريخ ، واليك بعض ما قالوه في هذا :

من ذلك ما لاحظ الأستاذ « سبروت » حديثا عن اتجاه بعض المفكرين الى اعتبار التقدم الانساني ظواهر حتمية لعملية باطنة ، عملية تتخذ طريقها وتسير فيه مستقلة عما يريده الناس ولو أنها تتأثر به . هذا بينما يربط الأستاذ « باريتو » ما بين التغير الاجتماعي والتغير في نوع الصفوة التي تقود الجماعة . أما النظرية الماركسية فتبرز التغير في أساليب الانتاج وطرائقه ، والصراع بين الطبقات ، وما الى ذلك .

ومن الخير أن نعرف ماذهب اليه أولئك الاجتماعيون وغيرهم ، على أن تنهج منهجا آخر لفهم التفاعل بين الاستمرار والتغير في تاريخ مصر ، نهجا يصح أن أسميه « ملازمة الوقائع » ، وهو يقوم على السعي الى

عزل أو فصل النــواة الأساسية للثقــافة المصرية ، ثم ملاحظة تأثر تلك النواة بما طرأ من مؤثرات فى الحياة المصرية ، ترتبت على وصل مصر طوعا أو كرها بالمدنيات والجماعات المتعاقبة غير المصرية • ودرجة هــذا التأثر هى مقياس التفاعل بين الاستمرار والتغير •

ومن فوائد منهجى هذا أنه يتيح لنا استقامة النظر فى أمر الثقافة المصرية ، فقد كان القــوم ينزعون الى النظر اليها ، كما لو كانت شــيئا انبعث كامل النمــو انبعاث « مينرفا » من « رأس زفس » • ولهــذا النظر ما يبرره ، فان الاغريق عندما اتصلوا أول الأمر بتلك الثقافة كانت قد شاخت ، واشتعل رأسها شيبا ، وفاض حكمة • فكيف يمكنهم أن يتصوروها أيام شبابها ؟ وبدت تلك الثقافة لبنى اسرائيل واثقة بنفسها أكمل وثوق ، لا يتطرق الى نظرتها لنفسها شيء من التشكك أو الحيرة ، ولما جاء علماء الآثار أو الحفارون ــ بمعنى أدق ــ الى مصر ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان همهم العثــور على الآثار المكتملة الصنع ــ آثار الخلق الفني ــ وقد عثروا عليها بالفعل • وأكد لهم ما عثروا عليه الصــورة التى خلقتهــا كتــابات الاغــريق وبنى اسرائيل •

طاف « مارييت » بالمسيو « رينان » فى مناطق اكتشافاته فى « سقارة » و « طيبة » ،وعبر لنا « المسيو رينان » عما تركته فى نفسه آثار الحضارة المصرية بقوله : « ان مصر هى صين أخرى ولدت مكتملة النمو وكأنما ولدت شيخا هرما ـ وانها كانت تتسم بسمات من الشيخوخة والطفولة معا ، انعكستا على صفحة تاريخها وفى آثارها » •

ويضيف الى ذلك قوله : « انه لمن الطبيعى ، ومن الملائم أيضا ، ألا يبقى الانسان شابا طول عمره ، ولكن ليس من الطبيعى ولا من الملائم ألا يمر الانسان بمرحلة الشباب » •

وبعد ، فماذا تدل عليه آثار مصر ؟ تدل على أن لا ابتكار ولا شعراء ، ولا مؤرخين ، ولا ثورات ، ولا « سقراط » يتلقى عنه « اكسينوفون » ويتخذه « أفلاطون » مثلا أعلى ، ويسخر منه « أرستوفان » •

***

أبديت تلك الملاحظات عندما كانت مصر تعد نفسها للارتباط بعجلة الأداة الأوروبية ، وهى ـ كما نعرف ـ عجلة سريعة الدوران • وربما كان للتباين الشديد بين

سكون الشرق وحركة الغرب ما يزيد الشرق سكونا ، والغرب حركة فى عين الناظر ٠

وهكذا يبدو الفلاح المصرى فى القرن التاسع عشر، وكأنما يعيش كما كان يعيش أجداده فى عصر الأهرام، وتبدو كذلك أسس الرخاء والحكومة الصالحة واحدة فى الماضى ، وفى الحاضر ، وترددت على الأفواه عبارات التوراة ، فالوزير الماهر هو « يوسف » آخر ، والامعان فى الاستئثار بما فى أيدى المصريين لم يفتر منذ أيام « فرعون » ٠

ثم بدأ طور جديد من أطوار البحث العلمى يظهر الى الوجود عالما تختلف حقائقه كل الاختلاف عما كان مألوفا معروفا ، فأظهر لنا الكشف عن عصر ما قبل التاريخ ، وعصر ما قبل الأسر المالكية ـ نشأة الحضارة المصرية وشبابها ٠ كما كشفت لنا النقوش الدينية عن شقاق كامن فى جسم المجتمع وفى نفس الفرد ، وكان هذا عندما نظروا فى تلك الكتابات بروح العطف وبصيرة الانصاف ٠ وانا لنعرف الآن كيف طرأت على المجتمع الذى بناه قادة عصر الأهرام عوامل من الضغط، وأن هذه العوامل فعلت ما فعلت مصحوبة بمشاهد من

العنف ، وكيف قام قادة آخرون ببناء صرح المجتمع المتداعى على أسس جديدة ، وبذا نصل الى مجتمع الدولة المتوسطة . ثم أدى قدوم « الهكسوس » وطردهم فيما بعد الى طور آخر من أطوار التاريخ ، هو عصر الامبراطورية .

وظاهر الأمر أن الامبراطورية رأبت الصدع الملحوظ فى بناء المجتمع ، وحاولت أن تخلق جوا من الاطمئنان والثقة . ولكن هيهات ؟ . فلا يستطيع انسان شاهد ، مثلا ، المناظر المنقوشة على جدران «قبر سيتى» أن يعتقد أن نفس الانسان فى ذاك العصر قد نعم حقا بالهدوء والطمأنينة . ولو كان الجو حقا من الثقة واليقين بالدرجة التى أحبوا أن يتوهموها لما كانت ثورة « اخناتون » الدينية ، وفيها ما فيها من معانى المجاهدة الروحية والتجديد فى كل شيء .

وعندما نصل الى الأسرات الملكية الأخيرة نبدأ فنلاحظ وجود نواة متحجرة داخل اطار التاريخ، ولعلنا نطلع على سر تحجرها اذا ميزنا بين عاملين احدثاه :

أحدهما : نظام اجتماعى ثابت يقوم على ضبط النيل .

والآخر : انسانية نمت فى جو مصرى خالص ·

وفي هذه الأثناء كان العالم خارج النظام المصرى يتبدل على أيدى شعوب أخرى ·

★★★

فماذا يكون حال النواة المصرية بازاء المؤثرات المادية والأدبية الجديدة ؟

وقبل أن نحاول الاجابة على هذا السؤال يجب أن نلاحظ حقيقة طريفة ، وهى أن ما لدينا من معلومات عن حال مصر وموقف مصر انما مصدرها جانب واحد، جانب أجنبى ، فان الاغريق واليهود ، ومن اليهم من الغرباء ، هم الذين رووا عن المصريين ما رووا ، وهذا فى رأيى حقيقة يجدر بنا أن نضعها موضع الاعتبار ، وكانت الصورة التى رسموها صورة شعب متجهم عبوس عنيد محافظ ، يكره كل ما هو غريب عنه ·

ولكن أكان هؤلاء الاغريق ، وهؤلاء اليهود حقا أقل انطواء على أنفسهم ؟

لقد نظر الأقدمون جميعا الى كل شىء ، بعين العصبية القومية ، بل كان لكل قوم ربهم ، الذى لا هم له الا

رعايتهم وتدليلهم . وماذا كان فى استطاعة المصريين أن يفعلوه مع شعب الله المصطفى ! .

ترى كم من الناس مر فى خاطره ذلك الحلم الذى داعب خيال « الاسكندر الأكبر » وحدا به الى رؤيا عالم روحه الوئام ، أو الانسانية المنبثقة من أخوة بنى الانسان ، وعلى كل حال فان المصريين تملقوا بالاسكندر وضموه الى أنفسهم ، بيد ان خلفاء «الاسكندر» فى مصر لم يثرهم شىء من ذلك الحلم الجميل ، ولم يفعلوا شيئا لكى تتفاعل الروح المصرية بالروح الهيلينية ، بل الأصح أنهم كرهوا هذا وعملوا ضده .

فلا نعجب اذن اذا وجدنا عهد البطالمة عهد تهجين . وعهد استغلال نافذ شامل ، وعهد كراهية ، وحرب بين الأجناس . ونصل على هذا النحو الى حقبة من التاريخ ، لا تفيد الحكومة فيها الا معنى واحدا هو كونها المالك الكبير ..

وخلف الرومان البطالمة ، وساروا بمنهج سابقيهم الى أبعد مدى يستطيعونه ، فلا عجب أن صار المصريون أكثر تجهما ، وأكثر عنادا وصلابة .

وجاءت المسيحية فخلصت الروح المصرية مما شابها

من قتام وعبوس وصلابة ، بيد أن اعتناق المصريين المسيحية ، ثم الاسلام بعد ذلك ، حدث في عالم مصرى منشق على نفسه ، ولقد تحرر الانسان حقا بفضل المسيحية والاسلام التحرر الحقيقى من رق الخرافة والعبودية لغير الخالق ، وتحرر الشعب من رق المقدونيين والرومان • ومع ذلك فان الفرد المتحرر لم ينل الحرية التى تتيح له فرص اكتمال شخصيته ، فقد بقى التمييز والتفرقة ما بين الحاكم والمحكوم قائما ، وحال ذلك دون تمتع الفرد بنصيبه الكامل من الجزاء والمسئولية • ولكن التحرر الذى آتى بفضل الديانتين الجديدتين ـ المسيحية والاسلام ـ كان تحررا لا شك فيه ولا ريب • فلنتأمل مثلا مصر المسيحية تخلق فنا جديدا ، وتقيم كنيسة قومية ، وتصنع لنفسها أداة لغوية جديدة • ولنتأمل حياتها الدينية وتنوعها ، ولكنها مع ذلك شقيت بالنزاع مع « بيزنطة » وقد كان هذا النزاع مبعث كثير من العداوة والجدب الفكرى ، والدمار الذى حل بالعصور البيزنطية المتأخرة •

وبدخول القوم في الاسلام اتسع الأفق المصرى ، وامتد الى محيط دار الاسلام • وما ثقافة مصر فى عهد الاسلام الا الثقافة الاسلامية معدلة ، لتلائم ظروف

مصر ، وهنا حدث فعلا تكافؤ بين الاستمرار وبين التغير • ولم تشهد رجحان كفة مبدأ التغير الا عند استهلاك القرن التاسع عشر وبدء الاتصال بالغرب •

وبعد ، فماذا نقول بعد أن لازمنا نواة الحضارة المصرية خلال عصور التطور والتبدل المتعاقبة • نقول: اننا نستطيع أن نقدر مدى تأثر عقل المصرى وارادته ؟ ولكن ، ما الحكم على رفيق العقل والارادة المستقر فى أعماق النفس ؟

سؤال ليس له من مجيب •

الحكومة والمجتمع فى مصر

قد عـرف المجتمع بأنه : « نسـيج من العـلاقات الانسـانية المتـداخلة أو المتفاعلة بعضها مع بعضـها الآخر » • وعرفت الحكومة بأنها : « ممارسة السلطة من جانب صاحب السلطان ، ووكلائه أو مندوبيه ، لتنظيم تلك العلاقات أو التفاعلات فى مجتمع ما » • وهنـاك ارتباط وثيق بين أوضاع الحكم وأغراضه فى مجتمع معين ، وبين ما يعتنقه أعضاؤه من آراء ومعتقدات عن أصل مجتمعهم • فاذا اعتقد قوم ، مثـلا ، أن مجتمعهم هو من صنع الآلهة ، عندئذ يكون للآلهة أو سلالة الآلهة السلطان الأعلى عليهم ، ويكون زمام الحكم فى أيديهم • تلك كانت عقيدة قدماء المصريين عن أصل مجتمعهم •

وهكذا كان السلطان والحكم فى أيدى الملوك الآلهة ، وسادت فى مصر بعد اعتناق أهلها المسيحية مذاهب أخرى ، وتغيرت تبعا لذلك مدلولات كلمتى المجتمع والحكومة ٠

ومنذ سنوات وضع الأستاذ « ديبواريشار » (من أساتذة كلية الحقوق بالجامعة المصرية) بحثا ممتعا مثيرا للتأمل ، فى موضوع : « تطور الحكم وأصوله فى مصر ، منذ أقدم عصورها » ونشره له المعهد المصرى ٠ وقد فرق الأستاذ « ديبواريشار » بين أطوار ثلاثة :

أولها : ظهور حكومة الملوك الآلهة ، سواء الفراعنة الأصليون أو خلفاؤهم البطالمة المقدونيون والقياصرة الرومان ٠

وثانيها : طور الحكومة ، يسودها قانون مستمد من شريعة سماوية ، مسيحية كانت أو اسلامية ٠

وينتهى هذا الطور فى عصر الثورة الفرنسية ٠

أما الطور الثالث : أو الحالى فهو : طور الحكم على قواعد من وضع العقل البشرى ٠

وهذا التمييز مفيد ، وان كان مما يحتمل الجدل أن

مجتمعا ما أو حكما ما يخضع خضوعا خالصا للعقل وحده، ويكون كل تصرف فيه مما يمكن وصفه بأنه تصرف معقول ، فلنتتبع بعد هذا التقديم أطوار المجتمع والحكومة على وجه الاجمال • ولنحاول أن نحذو حذو « أرسطاطاليس » في منهجه التحليلي التسلسلي • ولعلكم تذكرون كيف بدأ بالمنزل ، وانتقل منه الى القرية ثم المدينة •

والمدينة تتوج التسلسل ، وفيها وحدها يتاح للانسان آخر مجال لاكتمال طبيعته • فهي « طبيعية » بالنسبة اليه ، وهو مدني بالطبع • وبينما المدينة وليدة مقتضيات الحياة ، فان بقاءها مما تقتضيه الحياة الطيبة • هذا ، واذا أوغلنا في أقدم ما تمليه الحيطة من عصورنا التاريخية وراء تحديد نقطة البدء في حياتنا المدنية وجدناها في مواطن الجماعات المصرية الأولى التي أصبحت فيما بعد « كور » مصر في الاصطلاح اليوناني ثم العربي المصري ، أو مديرياتها ـ الى حد ما ـ في اصطلاحنا نحن المعاصرين • ويجب علينا أن نتذكر دائما أن كل واحدة منها كانت موطن جماعة من الناس تربطهم بعضهم الى بعض صلات نسب ، ومصالح ، وأنها بدأت واستمرت متميزة بعضها عن

بعض ، عقيدة ومبوقعا ومصالح . وان مصر كانت ثمرة اتحادها فغلبت عليها بعد الاتحاد صفة كونها أقساما ادارية في مملكة .

وليس من اليسير علينا آن نقدر الآن أثر تحدر جماعات الكور الأولين من سلالة بشرية واحدة في التقريب فيما بينها . والثابت : أنها تعرضت من حيث تكوينها الجنسى لمؤثرات مختلفة . فالمواطن التى تتاخم البادية ــ مثلا ــ أو التى تقع على خطوط المواصلات الكبرى أو قرب قلب أفريقية زاد اختلاط أهليها ــ بعناصر بدوية أو آفريقية أو آسيوية أو غير ذلك ــ عن غيرها ، وهكذا . وفضلا عن ذلك كان لأنواع البيئات المصرية أثره في ايجاد فروق كبيرة بين الجماعات ، فالدلتا غير الصعيد ، وما جاور البحيرات أو البحر أو الصحراء له أثره العميق ، بالاضافة الى اختلاف عناصر المناخ ، ومزايا الموقع الجغرافى الحربية والتجارية وما الى ذلك .

ومهما كان الأصل أو المنشأ أو الظروف فان نصيب « الكور » في تكوين المجتمع المصرى أمر بالغ غاية الأهمية ، بل ان اتحاد مصر لم يبطل تأثيرها العظيم .

وآية ذلك التأثير أن انتقال الحكم من أسرة أو من مجموعة من الأسرات الى مجموعةأخرى ان هو الا توكيد متصل لاحتفاظ نواحى المملكة بعصبية محلية قوية تستند الى أساس منالتقاليد والواقع . وأن هذه العصبية المحلية تعمل اذا ما واتتها الظروف على أن يمتد نشاطها الى المملكة بأسرها .

وقد تم تكوين الوحدة المصرية أو المجتمع المصرى عن طريق الفتح ، والمشهور أن الأمر استقر على تكوين مملكتين وانتهى باتحاد المملكتين أو الأرضين .

وكلمة « فتح » قد نسيء فهمها . فالغالب أن الفتح لم يعد أن يكون حمل جماعة من الجماعات على أن تقبل ارتباطا ظهرت مزاياه لها ولغيرها . ولا شك فى أنه بعد أن اتخذت الأقلية الخالقة « التى أشرت اليها فى الحلقة الأولى تلك الخطوة الحاسمة ــ خطوة الاستجابة لتحدى الجفاف . بمغادرة المرتفعات الآخذة فى الجفاف والجدب ، والاستقرار فى مستنقعات الأحراش فى أسفل الوادى ، وتحويل تلك المستنقعات الى النسق الذى نألفه ، من حقول مزروعة تشقها مجارىالرى والصرف، لم يكن أمامها مناص من وضع النهر كله تحت اشراف

موحد مركز . ويصح جدا أن تكون القوة هي التي استخدمت لبلوغ هذا ، ولكن القوة كانت بالنسبة الى عملية التوحيد والاتحاد كلها أقل الوسائل المستخدمة أهمية .

وقد آمن المصريون بأن تكوين مصر على النحو الذى به تكونت ، وتوحيدها على النحو الذى به توحدت ، لأعظم من أن يكونا أثرا من آثار عبقرية فرد أو طائفة ، بل هما أجل قدرا من أن يتما الا على أيدى الآلهة . فالآلهة هى التى عملت بالفعل ولم تكتف ـ كما يصح أن نتصور ـ بالهام البشر أو هدايتهم . وما الملوك البشريون الا سلالتهم .

ومما ينبغى ألا نغفل عنه ، أن وحدة مصر اتخذت مظهر التركيب أو المزاوجة ، فالتاج تركيب من تاجين . ومن الآلهة تتركب تراكيب ثنائية أو ثلاثية أو تساعية ، وما الى ذلك . وهذا كله له دلالته ، وله أيضا آفته . فان ما تركب يجوز أن يتفرق ويتحلل ، فكان لابد من خلق أدوات تصون المجتمع . ومن أهمها انشاء الخدمات العامة التى تدعو الى العجب والاعجاب .

واختراع الكتابة ، ومحاولة بلوغ الوحدانية على

نحو يجمع ـ فى مهارة وحـذق ، وفى سـذاجة وطيبة أيضا ـ بين الولاء المحلى والولاء القومى الدينيين ·

وقد قارن « المسيو رينـان » بأسـلوب لا يخلو من الفكاهة ، حكومة مصرالفرعونية بحكم تمارسه أكاديمية العلوم السياسية والخلقية · والأصح أن نقول : انهـا كانت حـكومة الفنيين · والفنيون يكـونون اذن أول طوائف مجتمعنا المصرى ·

ولكن يجب أن نلاحظ آن هؤلاء الفنيين لم يقتصروا على ممارسة فنون المادة ، بل مارسوا أيضا فنون الروح ـ ان صح التعبير ـ وهم جميعا كهنة · فلم يكن الكاهن رجل دين فقط بالمعنى الذى نعرفه ، بل كان كل ذى شأن كاهنا من نوع ما : من الملك الى من هو أدنى · ولذا فان لى آن أقسم المجتمع المصرى بين قلة من الحكام الكهنـة الفنيين ، ورعية تعمل فى الانتاج ، كما آن لى أن أسمى حكم مصر بحكم الملك الاله ، يمارس حـكمه بواسـطة فنية ·

ومما لا شك فيه آنه كان من الطبيعى آن يحـاول أولئـك الفنيون أن يتألهـوا وآن يؤبدوا نفـوذهم فى

ذريتهم ، وأن يوصدوا الأبواب دون الدخلاء . الا أن ثمة عاملين حالا دون ذلك .

أولها : عامل الاختيار والفناء الطبيعيين ، وهو يحول دائما دون ايصاد الأبواب في وجه الدخلاء من الخارج .

والعامل الثاني : هو أن « فرعون » كان يعمل دائما على أن يبقى هو وحده « منبع التشريعات كلها ، ومنبع الهبات كلها » . وعلى هذا الأساس كان جد حريصا على أن يرفع حديثي النعمة ـ كما تقول اليوم ـ كلما أمكن له ذلك .

ومما هو جدير بالنظر أن هؤلاء الفنيين عملوا على أن لا يسمحوا لأنفسهم بحرية استخدام مواهبهم، طبيعية كانت أو مكتسبة ، للتجديد أو الابتكار المطلق الا في فترات الثورات . كما لم يكن لهم أن يخرجوا عن ممارسة الوظائف المخصصة لهم وفقا للقواعد « السائدة » .

هذا شأن القلة ، أما الرعية من المنتجين ، فخير ما نفعل لمعرفة شأنهم ، هو أن نتصورهم جماعات منظمة

من الفلاحين والصناع يعملون في ضياع التــاج ، أو المعابد ما الى ذلك .

وقد عنيت الحكومة أدق عناية بحاجاتهم الروحيــة فنظمت شئون العبــادات العــامة ، ووضعت القــوانين الخلقية المستفيضــة لكفــالة حسن الســلوك والســيرة القــويم . ولم يترك لهم في الواقع الا متــاع الحيــاة العائلية ، وكانوا فى فترات اليسر والرخاء راضــين قانعين ، وأظن أن هذا كان كل ما هنالك .

ولقد كان فى وسع مجتمع مشيد على هذا النحو أن يشهد أيام عظمة ومجد ورخاء ، وأن يخلف ميراثا من جليل الأعمال ، ولكنه كان فى معظم الأحايين ، كمــا لو ذاق الموت .

ولمــا اعتــلى البطالمة والقيــاصرة الرومان عــرش « فرعون » تفككت عرى المجتمع المصرى كما وصفناه ، فالمجتمع في الظاهر هو هو ، وفى الباطن شيء آخــر . فقد استقر الاغراب من الأغريق واليهــود في القــرى والمدائن هنا وهناك ، ومارسوا شئون تجــارة الســلع وتجارة الفكر ، ومبادلتهــا مع البلدان الأخــرى وفقا لمبادىء غير مصرية . واستنزفت دماء الأهلين الى آخــر قطرة ــ وهذا كله بالاضافة الى عوامل أخرى جعل من

المحال استمرار النظام القديم ، وسلبت السلطة من يد الملك الآله ، أو من يد الآله القيصر الغائب عن البلاد ، ونشأ عهد اقطاع ، وتكونت الضياع الكبيرة ، وقويت نقابات أرباب الحرف ، وعلا شأنها فى المدن ، ولم يبق فى الأسر التليدة الا أهل الريف • وهكذا ظل الريف يأكل ويهضم الغذاء الانسانى الذى يقدم اليه ، ولا يشبع نهمه •

وجاءت المسيحية بشيرة بالخلاص ، بشيرة — على الأقل — برفع نير اليأس ، ودان لها الحاكمون البيزنطيون ، والمحكومون المصريون على السواء ، ولكن الفرج لم يأت بعد ، فالحكام أجانب ، والاجانب لا يستغلون الموارد فحسب ، ولكن يعملون أيضا على فرض مذهب دينى معين ، ونظام كنسى معين على الرعية • وانتصر المصريون فاحتفظوا بشخصيتهم ، وشادوا بأنفسهم — — ولأنفسهم فقط — صروح الفن واللغة والآداب والكنيسة • ولكن مجتمعهم انتقل من النظام الموحد الذى عرفه آباؤهم الى مجتمع يقوم على الطوائف والهيئات : سكان القرى ، وسكان المدن والطبقة الوسطى ، والقساوسة والرهبان ، تربطهم جميعا رابطة من الدين والتقاليد •

وفي سطوع نور الاسلام نصل الى العصر الثاني من عصرى الحكم ، الذى يسوده قانون مستمد من شريعة سماوية • وقد ظل المجتمع قائما على تنوع الطوائف والهيئات كما كان من قبل ، الا أن ما بين تلك الطوائف والهيئات من فوارق وفواصل آوهنه وأضعفه احساس قوى بالانتماء الى « الأمة » ، الأمة الواحدة ، وهو احساس سرى حقا في كل فرد وفي كل جماعة • أما في دائرة الحكم فقد كانت مصر الاسلامية ـ شأنها في ذلك شأن غيرها من البلاد الاسلامية ـ تعترف بالحقيقة القائمة على التمييز بين الحكومة الشرعية حقا وحكومة الواقع • وبهذا كانت تخضع عن طواعية الى انتقال السلطة من أسرة حاكمة الى أخرى أو من عصبية الى أخرى • بيد أن الاعتراف بسيادة « الشريعة » كفل للعدالة وجودا • كما أن الاحساس القوى الذى أشرنا اليه بالانتماء للأمة ، ويقظة الهيئة الدينية الشرعية أوجدا أداة عملية ناجزة لاحقاق الحق •

وبالاضافة الى هذا كله كان للمجتمع الاسلامى أن يعتز بأنه هيأ لغير المسلمين مكانا منه ، يتبوأونه عن حق ومشاركة جدية في نواحي الحكم والاقتصاد والثقافة •

وأخيرا نصل الى طور « الحكم وفقا لأحكام العقل » وسنتناول ذلك في الفصل الأخير الخاص بمصر والغرب، ونكتفي الآن بأن نذكر أن الظروف ، التي أوجدت ذلك الطور من أطوار الحكم ، أدت الى الانقضاض على المجتمع الاسلامي كما ورثناه ، والى محاولة بناء مجتمع مصري جديد عن طريق التجريب ، وعن طريق الارتجال ، وأحيانا تحت حكم الأهواء ، وهذا ما يجب أن يكون ، ما دمنا قد نصبنا العقل الانساني على عرش السلطان .

الانسان والمجتمع فى مصر

هل خلق الفرد من أجل الجماعة ــ أو خلقت الجماعة من أجل الفرد ؟ وهل الانسان والنحل والنمل وسائر الهوام فى الحياة الاجتماعية سواء بسواء ، أو أن للانسانية ، من حيث هى ، معنى أجل خطرا من انسانية المواطن أو العامل فى الانتاج ؟

اننا لو نظرنا الى طبيعة الانسان نظرا يحده أفق الحياة الدنيا وحدها لتحتم علينا أن نقول : ان كل معانى الوجود الانسانى تحصرها دائرة التاريخ : وفى هذه الحالة لا يكون الفرد من بنى الانسان إلا جزءا من ذلك المجتمع الذي هو أحد أعضائه ، وفي هذه الحالة

كذلك يكون الشيء الذى يهم هـو النمـو الاجتمـاعى للجماعات ٠

ولكننا لو نظرنا ــ من جهـة أخـرى ــ الى طبيعة الانسان ومصـيره ، نظرا مركزا في حيـاته الآخـرة وحدها لتعين علينا أن نقـول : ان كل معـانى الوجود الانسانى تقع خارج دائرة التاريخ ٠ وفى هذه الحالة يكون العـالم بلا معنى وكله شر ٠ وينحصر فى هـذه الحالة كذلك سعى الانسان فى حمل المجتمع كرها ، وفي الابتعاد عنه ٠ وهكذا نجد المجتمع ــ حسب النظر الأول ــ يبتلع الفرد ٠ ان صح هذا التعبير ، وحسب النظـر الثانى نجده عدوه اللدود ، أما النظر الآخر فيغفل أن الانسان بحكم أنه كائن اجتماعى لا يستطيع أن يبلغ الكمال الروحى الذى يسمو اليه الا بعدم الانطواء عـلى نفسه فيخالط الساعين سعيه الروحى عـلى أسـاس أن معرفة الله هى فى جوهرها مسعى اجتماعى ٠

هذا ولم يتـأثر المصريون فى أدوار تاريخهم كثيرا بالنوع الأول من النظر فى طبيعة الانسان ، ولكنهـم ــ على العكس ــ غلب عليهم النوع الثانى من النظـر ، وذلك فى ظل وثنيتهم ومسيحيتهم واسلامهم ٠ فلا نعجب

اذن اذا أدركنا أن العقيدة الدينية لم ترجح كفة الفرد كما كان ينبغي لها أن تفعل ، ولم ترفع عنه عبء ما أوجبه المجتمع عليه بحكم ضرورات لازمت المجتمع المصري ملازمة تكاد تكون دائمة ٠

وهذه الضرورات التي سوف أتناولها الآن بالشرح أدت الى نوعين من النتائج : الحط من قدرالفرد والزامه بألا يخرج عمله عن التكرار من جهة ٠ وحصر السلطان في قلة متسلطة ، كانت الجماعات تشقى وتكدح لتوفير وسائل الراحة والمتعة والرفاهية لها من جهة أخرى ٠

وترجع الضرورات التى أشرنا اليها الى عوامل طبيعية معينة مستقرة فى أسس الحياة المصرية ، وهى عوامل تعمل بانتظام وتواصل عملها عاما بعد عام دون تغير جوهرى فيها ـ أو على الأقل ـ دون تغير ملحوظ منذ فجر التاريخ على ما نعرفه ، ومداه قصير نسبيا ٠ فتوالى الفصول واختلافها والحرارة والرطوبة، واتجاه الرياح وسرعتها ، وفيضان النيل وانخفاضه ، كل هذه الظواهر الطبيعية تجرى فى نسق كامل منتظم الحركة ، كما أن ما يحدث من التغيرات يخضع أيضا لنظام دورى رتيب ٠ وان بيئة هذا شأنها لابد وأن يجرى

كدح الانسان وكده فيها على سنن منتظمة رتيبة ، الا أنه لابد لهذا الكد من أن يكون ثابتا متواصلا ، وأن يجرى على نهج نظام تصنعه سلطة عليا واحدة • اذ أن كل توقف في الكد والجهد ، وكل توان في اليقظة والانتباه ، وكل نزوة من نزوات الفرد ، يعقبها الدمار والكوارث • ويحق لنا اذن أن نقول : ان مصر التى بناها المصريون وشادوها تتقاضى من بناتها ثمن بقائها، وتفرض عليهم نوع الحياة التى يحيونها • وقد بلغ من سيطرة مصر على ساستها وقادة أمرها ، ورسمها لهم خطط ادارتها ، واستغلال مواردها ، أننا نجد ـ اذا استعرضنا على سبيل المثال ـ أعمال أحد سلاطين المماليك أو الولاة الرومان ، هى هى أعمال أحد البطالمة نفسها، لم تتغير الا فى الأسماء والأعوام • لقد جعل مؤسسو مصر منها ضيعة ، وكان من الضرورى من أجل استغلالها أن يخضعوا سكانها لحكم مطلق مركز ، فيجنون بذلك ثمرة تنظيمهم لموارد المياه وموارد التربة ، فلا تضيع من الماء قطرة ، ولا يبقى من الأرض شبر غير منزرع • ويمكن تلخيص مفتاح النظام كله فى المبادىء الآتية :

الصلة الوثيقة بين الادارة العامة وبين الاستغلال الاقتصادى ، الأهمية القصوى لعمل الادارة ، الادارة

يجب أن تكـون منتظمـة يقظـة • وما تاريـخ مصر الا مصداق لهذه المبادىء • فلا نعرف بلدا يتأثر أهلوه بالحكم صالحا أو فاسدا كما يتأثر أهل مصر • ولا نعرف بلدا يسرع اليـه الخراب اذا سـاءت ادارته كمصر • ولا نعرف بلدا تجرى فيـه العـوامل الاقتصادية نحـو نتائجها المقدرة دون تمهل ، ودون انحراف كمـا هـو الحال فى مصر • فتستطيع فى مصر أن تقدر ما يترتب على رفع ضريبة من ازديادالانتاج وازدياد قوة الشراء ، وتستطيع فى مصر أن تحسب ما يساويه مال ينفق عـلى مشروع من مشروعات الرى قطنا كان أو قصب سكر •

فمن الجلى اذن أن بيئـة مصر الطبيعيـة والبشرية تنزع نحو ايجاد عاملين ، صالحين فى الانتـاج ، اكثر ممـا تنزع نحو ايجـاد الثروات الفـردية المتبـاينة • والمصرى فى التاريخ انسان متعلق بقريته أو حقله أو الشارع أو الحى الذى يسـكنه أشـد تعلق ، قريته أو مدينته هى وطنه • يشقى فى عمله • ويشـق عليه أن يتركه أو يهجره مهما سـاءت حاله ، ومهما انتـابه من كوارث الطبيعة • ولما كانت السنون فى مسالكها لا تأتى بجديد فلا معنى للتطلع الى جديد • واذا ما امتد البصر الى ما وراء القرية فما الذى يراه : اما أن يرى قـرية

آخرى ،و لا جديد في ذلك ، واما ان يرى الصحراء ، وما الصحراء الا الجدب والمــوت ، وأهلهــا رجال نهب وقطع طريق • فلا عجب أن يوليها الفلاح دائما ظهره، ولم يؤثر عن ابن المدينة أنه هام بشيء اسمه الطبيعة ، والقروى والحضرى كلاهما عرف الأيام الحلوة والأيام المرة ، ولكنهما لم يتصورا وجود عصر ذهبى كان فيما مضى من الزمان ، ولا يريانه قطعا في حاضرهما . وان كانا يرجوانه من الله فى الآخرة جزاء ما صبرا • ليس العصر الذهبى فى الغابر ، ولا فى الحــاضر ، فالظاهر أن طيبات الدنيا كانت دائما من نصيب القلة ، وكمــا قال الأستاذ توينبى : « خــلال الخمسة أو الســتة آلاف من السنين الماضية استأثر قادة المدنيات المختلفة بثمرة كد الجماعات ، وحرموا عبيدهم حقهم فيها دون تردد أو وخز ضمير • كما نفعل بالنحــل نســطو عــلى خــلاياه وعسله » •

والبلاء قديم قدم انشاء مصر ، فها هو ذا فرعون مصر ــ الملك الآله ــ يستعرض ما حوله . ويرى أن ليس فى الامكان أبدع مما كان فيستهويه الخاطر المضلل ، فيتوهم أنه هو ــ وهو وحده ــ خالق مصر • وفاته أنه لولا تعاون منظم من جانب فلاحيــه ، ولــولا ســهولة

انقيادهم ـ لما كان فى وسعه أن يخلق شيئا • فمارس السلطان وتصرف فيما أنتجه المجتمع بأسره كما لو كان ملكا خاصا له • لا يشاركه فيه أحد • ملكا يخدم أهواءه ومسراته وتمجيده فى هذه الدنيا ، وخلوده فى الآخرة ، فلا عجب أن نادى فى الملأ « أنا ربكم الأعلى » ولا عجب أن انحط شأن الفلاحين فلم يكونوا الا أدوات انتاج بشرية • وأخذ المجتمع المصرى القديم يتسم بالجمود ، والمحافظة على القديم والتقاليد كما يتسم بالعقم ، مما ناقض أتم مناقضة ما اتصف به المجتمع نفسه عند مولده وفى صباه من صفات الابتكار والاقدام فى لحظة من لحظات البطولة •

وفى أدوار التاريخ المتتالية قد يسمو مستوى الادارة وقد يهبط ، ويعم الرخاء أو البؤس ، ولكن يبقى ما بين الحاكم والمحكوم على ما هو عليه • كان الذى بينهما على أسوأ أحواله أيام الرومان ، عندما كان الزمام الوحيد الذى يكبح شراهة الحكام وسطوهم على ما فى أيدى الناس هو خوفهم من أن البقرة الحلوب قد يجف لبنها تماما •

ثم نصل الى العصرين المسيحى والاسلامى من تاريخ

مصر وهنا ننظر ، ألا يحق لنا أن نتوقع تحولا أساسيا في العلاقات الكائنة بين الانسان وبين المجتمع ؟ ألم تعلن هاتان الديانتان أن الانسان خلقه الله . وأن لكل مخلوق، ولكل انسان ، ولكل فرد ذاتية يستمدها من الله ، ولا يجوز لمجتمع ما ، ولا لسلطان ما . أن يدعى أن له أن يمنحها أو أن يستردها ، وأن على الانسان أن يكسبه رزقه ، وأن يكمل أدبه وأن يعبد ربه . وهذه شئون شخصية قبل أن تكون اجتماعية . ولكن ، والحق يقال ، لم يتأثر مركز الفرد في المجتمع باعتناقه تلك المبادىء الكبرى للحد الذى يحق لنا أن نتوقعه ، ويرجع هذا الى أسباب : يرجع أولا الى أن القائمين بأمور الدين كانوا يرون أن نزوع الطبيعة البشرية نحو الشر يقتضى الكبح ، وأنه مادام الشر عنصرا من عناصر الطبيعة البشرية فان هناك مجالا لسيف قيصر أو لدرة عمر . ويرجع ثانياء الى أن القائمين بأمر الدين كانوا يؤمنون بأن المجتمع لا يمكن أن يقوم الا على ترتيب الناس مراتب ودرجات .

كانوا يؤمنون مخلصين بالمساواة بين أفراد البشر ، ولكن هذا الايمان لم يقتض فى نظرهم العمل على ايجاد تكافؤ الفرص بين الأفراد ، والشيء الثابت هو تفاوت

الأفراد فى مواهبهم • ولا يضير المساواة الحقيقية أو ينقصها تفاوتهم فى الأرزاق • ويسرى فى التفكير الاسلامى ، قولا وعملا ، التمييز الواضح بين العامة والخاصة • على أن ما يحق للتفكير الاسلامى الفخر به قولا وعملا هو أن هذا التمييز لم يقم على أساس الحسب أو السلالة البشرية أو الغنى • ولكنه كان حقيقة واقعة • وكان له أثره بالاضافة الى عوامل أخرى فى تنظيم المجتمع الاسلامى فى مصر على أساس الوظيفة الاجتماعية المخصصة للفرد ، والوظيفة الاجتماعية هى التى تعين حقوقه • فللفرد المسلم صفتان : صفته انسانا مسلما ، وصفته فلاحا أو صانعا أو طالب علم أو كاتبا أو جنديا •• الخ • فالحقوق عامة وخاصة ، والواجبات عامة وخاصة ، وقد تطغى الواجبات على الحقوق فتمحوها عمليا أو تكاد •

ان النظرية الاسلامية لتقرر أن الحكم ينبغى أن يكون فى يد أصلح الناس له ، ولكن الواقع يوجب فى الوقت نفسه أن يكون في يد من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية • ومما يؤسف له أن امتلاك الوسائل أصبح فى النهاية المبرر الوحيد لممارسة السلطان •

هذا هو تراث الماضى، وقد أثر ما حدث من التغيرات خلال القرن التاسع عشر فى ذلك التراث على أربعة أوجه :

١ ـ اتخاذ الانسانية المطلقة أساسا للحقوق •

٢ ـ تغليب صفة المواطن على صفة الفرد ، فلاحا أو صانعا ، أو ما الى ذلك •

٣ ـ التطلع الى الخير عن طريق التغييرات الاجتماعية والاقتصادية •

٤ ـ الايمان بما تستطيع أن تحدثه الأنظمة المختلفة •

والواضح من هذا السرد أننا نركز النظر فى مجتمع جديد ، وأن عنايتنا بتكوين فرد جديد لا تعدو أن تكون وسيلة لايجاد المجتمع الجديد المثالى ، وهذا ما نستطيع أن نقوله عن الفرد والمجتمع فى عصرنا الحاضر •

المدينة والريف فى تاريخ مصر

ظلت حضارة مصر حضارة مجتمع ريفي خلال آلاف السنين من تاريخها · حقا كان لمصر مراكز حضرية ، وكانت لهذه المراكز مكانتها فى حياة البلاد القومية ، الا أن الحضارة مع ذلك كانت هى حضارة الريف وسكان الريف ·

وانا لنتساءل الآن كيف كان طراز تلك الوحدات الحضارية فى مصر القديمة · كان هناك « بنادر » (الأقاليم اليوم) · ولكنها كانت فى الحقيقة قرى كبيرة · وان قامت بما تقوم به المدينة ، اذ كانت مراكز الادارة المحلية ، والعبادات المحلية ، وفيها كان يعقد

السوق والمواسم ، كمـا كانت هنـاك قواعد المملكة ، وكانت النزعة الغالبة جعل قاعدة البلاد أو العاصمة في اقليم منف ، أى حيث تلتقى الدلتا بالـوادى ، وفوائد ذلك واضحة جلية ، الا أن مؤسسي الامبراطورية الجديدة قاوموا اغراء الاتجاه نحو الشـمال ، واتخـذوا طيبة قاعدة ملكهم القـومي والامبراطورى • وكانت هنـاك أيضا مدينة الجامعة الشهيرة ـ أو بمعنى أدق ـ المدينة الكهنوتية • « أون أو عين شمس » ، كما كانت هنـاك المدينة التي أسسها اخناتون « مدينة أخيتاتون » لتكون مركز العقيدة التي فرضها ، الا ان هذه لم يقدر لهـا أن تعمر طـويلا • وما تبقى منهـا من آثار في « تل العمارنة» يدلنا على وجهة نظر المصريين في فن تخطيط المدن • وأخيرا أمامنا طراز من المنشآت • يهمنا أمره عند دراسة التطورات الآتية بعـد ، نعني بذلك مدن المعسكرات المقامة عند الحدود ، مثـال ذلك « دافنى » في شرق الدلتا ، و « ماريا » في غربها « الفانتين » أو (جزيرة الفيلة) جنوبا ، و « نوقراطس » الواقعة في الدلتا ، وان كانت على اتصال ملاحى بالبحـر الأبيض المتوسط • وقد أتاحت تلك المعسـكرات لفراعنة مصر أن يسـكنوا العصـابات الحربية المتبربرة ، كالليبيين

مثلا ، أو الاغريق ، أو اليهود ، ممن كانوا يجندون ، وكان لزاما عليهم أن يوجدوا مواطن لهم ، لا بوصفهم جنودا فحسب ، بل بوصفهم جاليات أجنبيـة تقيم فى مصر دون أن تكون من مصر ، وكان أهم تلك الجاليات شأنا اليهود والاغريق • وسنشرح هذا الجانب من تاريخ مصر بعد ، بشيء من الاسهاب ، الا أن الثقافة المصرية الكبرى كانت تستقى مادتها دائما من ينبوع الطبيعة الريفية لا من الحياة الحضارية • فأصول الثقافة انما غذاها التأمل فى مظاهر الحياة والموت والنشور . وان وهن المدينة المصرية المادى ليصور لنا وهنهـا المعنوى أدق تصوير •

هذا ولما آذن العصر الفرعونى بالزوال بدأت فصول جديدة من التاريخ ، كان للمدينة فيها المقـام الأول ، وكان الاسكندر الأكبر هو أول من أزاح السـتار عن ذلك الفصل الجديد من فصول التاريخ • ويوصف ذلك الفصل الجديد اجمالا بأنه حضارة جديدة تكونت من عناصر متباينة ، صهرت فى بوتقة المدينـة المصرية • فالمدينة هى حجر الزاوية فى الامبراطورية كما تصورها الاسكندر الأكبر •

اذ كانت الفرصة فى المدينة مواتية لكى تؤثر العناصر

الوطنية والعناصر المستوطنة بعضها في بعض • وفيها تستطيع العناصر كافة أن تجد الجو المادى والروحى الذى يمكنها ان تعيش فيه • ومدينة « الاسكندرية » شاهد على ذلك • ويجب علينا أن نذكر أنها عرفت رسميا بأنها « الاسكندرية المتاخمة لمصر » فليست هى مصر أو من مصر •

وقد كان البطالمة حذرين فى تنفيذ سياسة نشر الحضارة الاغريقية عن طريق انشاء المدن • فتعارضت سياستهم فى هذا المضمار مع سياسة منافسيهم السلوقيين فى سوريا • ويرجع ذلك الى أن البطالمة كانوا يدركون أن المدينة الهيلينية ــ من الوجهتين الروحية والمادية ــ لابد لها من أن توهن على الأيام الحياة الاقتصادية التقليدية ، وتفكك أواصر المجتمع • لذلك لم يؤثر عنهم الا شيئان هما : اعلاء شأن الاسكندرية وانماؤها حتى ازدهرت وأصبحت مركزا عظيما من مراكز الحضارة الهيلينية ، وتأسيس مدينة « توليماس » فى الصعيد • وكان البطالمة يفضلون اسكان جندهم فى الريف واقامتهم زراعا مستعمرين •

وقد كان ذلك بداية ارتباط وثيق بين الريف والمجندين ــ وكانوا عادة من الأجانب ــ ذاك الارتباط

الذى دام حتى بداية القرن التاسع عشر • وقد اتخذ ذلك الارتباط مظهرين • أحدهما : مرابطة الجند فى الريف مثلا • أما المظهر الآخر فهو تخصيص دخل الدولة من الأراضى الزراعية بالذات للانفاق على القوات العسكرية • ويجدر بنا فى هذه الجولة العاجلة أن نلاحظ أن أولى الأمر فى امبراطورية الرومان ، رغبة منهم فى قهر مقاومة المصريين على التخلى عن قوميتهم ، حولوا عواصم الولايات ـ تلك المدن التى كان يطلق عليها اسم : « متروبوليس » الى بلديات ذات حكم ذاتى • وقد تم ذلك فى القرن الثالث الميلادى حينما كانت مصر تجتاز ذاك الطور من ثقافتها التى كانت مزيجا من الحضارات المصرية والهيلينية واليهودية ، لتصبح ذلك المزيج الفذ : المسيحية « المصرية » •

وهنا نقف لحظة لنلقى نظرة الى الوراء ، الى ثقافة ما قبل المسيحية ، وهى التى تسمى عادة حضارة الاسكندرية ، وهى تسمية عملية وان كانت لا تعطى استمرار التقاليد المصرية الخالصة فى الريف حقها من الاعتبار • ولا عجب فان تلك التقاليد خبا نورها الى جانب ما كان للاسكندرية من بهاء وسناء •

ويمكن للباحث أن يستعرض ثقافة الاسكندرية من وجهتى نظر ، هما : وجهة نظر الجماعات الثلاث التى أسهمت فى تكوينها ، أى من ناحية ما كان لتلك الثقافة من أثر فى ازدهار وتنمية التقاليد الخاصة بكل جماعة منها ، كما يصح أن يستعرضها من ناحية انبثاقها وبزوغها ثقافة انسانية عامة بالمعنى الحقيقى لذلك الوصف • ومما لا شك فيه أن كلا من التراث القومى لليهود والهيلينيين كان بفضل ما تم بينهما من اتصال فى مدينة الاسكندرية •

وحسبنا أن نشير الى ما بذل من جهود متواصلة فى دراسة روائع الأدب الهيلينى الكلاسيكى ، والى ازدهار الأدب اليهودى فى الاسكندرية ، مما يبرهن على ان الحضارات القومية المتصلة اتصالا حيويا بالحضارات الأخرى تكون دائما بمنأى عن خطر الاضمحلال أو الفناء • وبينما كانت التقاليد الثقافية القومية المختلفة تتفاعل على هذا النحو تفاعلا مثمرا فيما بينها ، حدث فى الوقت نفسه بزوغ اتجاه عام جديد نحو معالجة الشئون الكبرى لحياة البشرية فى هذا العالم • كان هذا الاتجاه فى بعض الأحايين غير مباشر ، ومثاله البحث العلمى الذى مارسه الاسكندريون ، وكان هدفهم منه

جمع الحقائق وتنسيقها • سواء التى تتعلق بالفلك أو بالطبيعة أو بعلوم الأحياء والجغرافيا أو بغيرها • وكان هذا الاتجاه فى أحيان أخرى يهدف الى معالجة الشئون الكبرى باتخاذ أقصر الطرق . ومثال ذلك انشاء اله أو معبود واحد (هوسيرابيس) تركيبا من آراء دينية مصرية واغريقية ، وفى أحيان أخرى كانت تلك الشئون تعالج من الناحية التصوفية والفلسفية • وكانت المشكلة التى تشغل بال الاغريق واليهود ، ومن بعدهم المسيحيين فى الاسكندرية ، هى مسألة علاقة الله بالكون وبخاصة بالانسان •

ولم يقم المصريون بنصيبهم فى صخب الحياة الروحية وغمارها وخضمها الا بعد انتشار المسيحية ، وتفتت الصخرة الصلبة صلابة الجرانيت فى قلب المجتمع المصرى القديم ، وكانت ثمرة روحانيتهم المسيحية نظام الرهبنة • والنظام فى صميمه ولبه ثورة الفلاحين المصريين ، وهى فى ظاهرها ثورة على الحياة الدنيوية ، ولكنها فى حقيقتها وواقعها ثورة على المدينة ، وكل ما ترمز له المدن وحياة المدن ، وقد ترددت فى وهاد الجذب والعقم والعنف والرذيلة •

هذا وقد أعاد انتشار الاسلام « للمدينة » مكانتها

المسيطرة المهيمنة فى المجتمع المصرى ، فثقافة مصر الاسلامية ثقافة حضارية • وقد شهدت القاهرة ـ ولمدى أقل بعض المدن فى الأقاليم ـ ازدهار تلك الثقافة ازدهارا كاملا، وتبوأت القاهرة مكانة ممتازة بين مراكز الحضارة الاسلامية ، وذلك فى ميادين الفنون ونشر العلم ومرفهات الحياة • هذا وقد درج بعض علماء الغرب على أن ينكروا على المدينة الاسلامية الصفة الحقيقية التى تتسم بها المدينة • ومن رأيى أن ما حدا بهم الى اتخاذ ذلك الرأى يرجع الى أن المدينة الاسلامية تفتقر الى مراسيم انشاء الأنظمة المدنية ، ولكن مع ذلك لا مراء فى أن مدينة القاهرة الاسلامية قامت بنصيبها الأوفى فى بناء مصر السياسى ، وكان هذا بفضل هيئاتها المدنية ومعاهدها الدينية مضافا الى ذلك ـ وهذا مالا يصح اغفاله ـ الفتن الشعبية ، فنصيب القاهرة فى الأحداث لا يمكن تجاهله •

هذا وبفضل نمو الطوائف الصوفية ، وتمسك الشعب عامة بالقصص الشعبى ، خلقت الصلات التى كانت تربط الريف بالمدينة ، تلك الصلات التى بقيت الى يومنا هذا •

هذا وقد شهد عصرنا الاتجاه نحو ادماج المدينة والريف فى فكرة المواطنة المشتركة ونمو فكرة الدولة، ولكن مازال أمامنا طريق طويل ، علينا أن نسلكه قبل أن نصل الى موازنة صالحة بين الاثنين من وجهة النظر الثقافية ٠

مصر والعهد القديم

ما هى طبيعــة علاقات مصر « ببنى اسرائيــل » ، أولئك القوم الذين تحدث عنهم العهد القديم وعن أحداث تاريخهم وجهودهم الروحية بتلك الروعة وذاك السناء ؟ هل أسهموا فى تكوين مصر اسهام الحضــارة الهيلينية والمسيحية والاسلام والغرب فيه ؟

اننا نعرف أنه كان هناك مصريون منــدمجون فى الاغريقية ، واغريق « متمصرون » ، كما كانت هناك مصر المسيحية ومصر الاسلامية ، ونعرف أن الغرب قد سيطر على مصر ، وأن مصر اتجهت الى الغــرب حينا ، كما أشاحت بوجهها عنه أحيانا ، وكان ذلك فى الحالين عن وعى وادراك ٠

ولكن ترى هل كانت مصر على علاقات مماثلة مع بنى اسرائيل ؟ ولكى أجيب عن هذا السؤال يجدر بى أن أميز بين نوعين رئيسيين من الصلات بين الشعبين ٠

فأما النوع الأول فيرجع الى فترة ما بين بداية كتب العهد القديم الرسمية ونهايتها ، اى حتى ذلك الحين الذى كانت فيه مصر وفلسطين مندمجتين فى امبراطورية الفرس وفى ابان الآحداث الخطيرة التى ترتبت على فتوح الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد ٠

وأما النوع الثانى فيبدأ عندئذ ، اى عندما أخذ اليهود فى الاستيطان فى مصر ، وقد قدر لليهود أن يكون لهم أثرهم فى حياة البلاد الاقتصادية والثقافية ، ولكنهم كانوا فى هذه الحالة عاملا من عوامل تكوين مصر المسيحية والاسلامية ثم مصر المتصلة بالغرب ، فيجدر بنا اذن أن نترك أمرهم لأحاديثنا فى تلك الموضوعات وأن نخصص الحديث الحالى لعلاقات مصر بيهود العهد القديم ٠

ومن رأيى أن تفسيرى لتلك العلاقات يكون أوضح وأبين لو اخترت وقائع وحوادث معينة ورتبتها ترتيبا زمنيا ، ولنبدأ بزيارة ابراهيم ، وقد وقعت تحت ضغط المجاعة ٠ وهى تبدو لنا مثلا قديما جدا للعلاقات

بين الأقوام من رعاة الصحراء أو ما يشبه الصحراء وبين وادى النيل • ويرى بعض الثقات أن قدوم ابراهيم حدث فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كما أن بعضهم يوقتها بعد ذلك • ويجب علينا أن نلاحظ أنه كان لسارة زوجه ابراهيم جارية مصرية ، هى هاجر أم اسماعيل ، وقد أسكنها ابراهيم ببلاد العرب كما هو معروف • كما يجب علينا ألا ننسى قدوم يوسف الى مصر وما صادفه من تقلبات الحظ بين سعد ونحس ، حتى آل به الأمر الى توليه السلطة كوزير لفرعون مصر ، ولقد أثرى هو وشعبه ثراء عجيبا ، وابتسم لهم الحظ • ويقول بعض المؤرخين ، ويعارضهم آخرون : ان ذلك حدث فى عهد الغزاة الأجانب الذين كانوا يسمون بالهكسوس، والهكسوس فى الواقع فتحوا أبواب البلاد لاخلاط من الناس وفدوا عليها من الشرق • ويبدو أنه فى أيامهم ازداد اليهود الذين كانوا يعيشون فى مصر عددا وثراء ، وامتلأت خزائنهم وحظائر ماشيتهم ، كما اكتسبوا مهارة فى ميادين الفنون المختلفة المعروفة عند المصريين ، كصناعة المعادن والحفر على الأحجار الكريمة والصباغة والنسيج ، وكان يجمعهم نظام يرأسه « شيوخ » من أنفسهم • وعلينا أن نذكر

أنهم عندما غادروا مصر كان رحيلهم على شكل حشد ونظام عسكرى ، أى رحيل أولئك الذين لم يؤثروا البقاء بعد انتهاء حكم الهكسوس •

وتنتقل بنا القصة الى ما قامت به الأسرة الثامنة عشرة من أعمال عسكرية باهرة وانتصارات فى آسيا ، والى اعادة تنظيم الامبراطورية والى الآثار الكبرى التى شادوها والى ذلك الحدث المفاجيء : ثورة اخناتون الدينية • وهذه العبادة التى فرضها اخناتون ـ عبادة قرص الشمس تحت اسم أتون ـ يمكن أن تعتبر ، على وجه ضيق ـ شكلا من الأشكال المتعددة لعبادة الشمس، ولكنها تقوم على الايمان بانه واحد قوى حى ، وبدا نشأ نوع من التقارب بين هذا التطور فى عقيدة المصريين وبين توحيد اليهود •

والآن نتساءل ما أثر العقيدتين احداهما فى الأخرى ؟ وليست الاجابة على هذا السؤال بالأمر الهين، فان العمل الجليل الذى قام به اخناتون كان يتسم بطابع الابتكار الشخصى فى طموحه وتحقيقه • ولكن تشابه الأفكار ـ ودع التشابه اللفظى جانبا ـ بين أناشيد اخناتون وبين بعض المزامير يسترعى من النظر والفكر ما يدعو الى دقة وزنه وتقديره حق قدره • ولن

تدهش اذا كان زوال سـلطة عبدة أتون مرتبطا بعض الارتباط باضطهاد بنى اسرائيـل فى عهـدة الأسرة التاسعة عشرة كما يرى المؤرخون عامة ، وقد يكون هذا الاضطهاد قد بدأ قبل ذلك وأنه نبت فى كراهية المصريين للهكسوس وشيعتهم وأذنابهم • وقد يكـون رد الفعـل الذى أعقب وفاة اخناتون قد أدى الى النفور من جميع عبادة المعبودات غير المصرية ، ثم حدث أن فراعنة الأسرة التاسعة عشرة ، وقد كان من بينهم فرعون بنى اسرائيل (ولا نعرف من هو) ، اهتموا بتشييد العمائر الضخمة ، مدنية وعسكرية ، ولم يسخروا فى تشييدها ــ كما كان يفاخر رمسيس الثانى ــ الا عناصر من غير الأهلين • ونصل بذلك الى المرحلة التالية ، والشـخصية البارزة فيهـا هى شخصية موسى ، الذى أخفتـه أمه فى بردى النهر لتنقذه من ذلك الأمر القاسى الذى أصدره فرعون بذبح المواليـد الذكور كافة ، وتبنته امرأة فرعون • ونما موسى وترعرع فى كنف ثقافة مصرية ، ولكن قدر له أن يثور عليها • وقد ورد فى القرآن الـكريم ذلك العتاب المؤثر الذى وجهه فرعون لمـوسى : « ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين » •

ثم هرب موسى الى مدين ، ثم كان أن اختـاره الله

وأمره بالذهاب الى فرعون ، ليكف عن تعذيب بنى اسرائيل ، وليسمح لهم بالخروج من مصر ، وتمكن موسى ، آخر الأمر ، من أن يخرج بقومه · وفى رواية العهد القديم وصف البحر الذى عبروه بأنه : « بحر ملىء بالحشائش والعشب » كما لم يرد فيها نص على أن فرعون نفسه كان ممن هلكوا ، وقد حمل اليهود معهم أمتعتهم ومقتنياتهم وجثة يوسف · ومما هو جدير بالذكر أنه لم يرد ذكر شىء من هذا كله فى النصوص التاريخية المصرية ، وسأعود الى هذا مرة أخرى ·

والآن تنتقل القصة الى الحوادث المتصلة بالتيه والوصايا العشر ، والاستيلاء على أرض كنعان ، ثم قصة يوشع وعهد القضاة ، ثم قصة صمويل والمملكة حتى حكم سليمان ، وما امتاز به من ضخامة وعظمة ·

ومن هنا ـ حتى نهاية العصر الذى حددناه ـ نتناول شرح ما يجوز تسميته بسياسة توازن القوى ·

ننتقل الآن الى سوريا وفلسطين مقسمة بين دويلات ومدن متناهية فى الصغر ، وتحيط بها دول ملكية قوية تمارس بنشاط وهمة سياسة التغلب · ولذا فاننا نجدها تحاول أن تملك أو تسود الأراضى الفلسطينية السورية ، وكانت بمثابة الجسور والمعابر ما بين مصر

وغربى آسـيا ، ومن ثم اهتمت مصر اهتمـاما عظيما بشئون جيرانها • ولما لم تكن من القوة والسلطان بحيث تستطيع الاستيلاء على أرضهم أو ضمها اليها الا فترات قصيرة من الزمن ، فانها وجهت جهودها للحيلولة دون وقوع تلك البلاد فى أيدى أعدائها ، ولو حدث وسقطت تلك البلاد بالفعل فى أيديهم فان مصر كانت تعمل على اثارة المتاعب لمحتليها • وقد كان هذا قصارى جهـدها فى ذاك الحين ، اذ كانت قوتها قد أخذت فى النقصان، بيد أن أثرها فى الثقافة اليهودية كان ملحوظا فى عصر سليمان فنشأت صـلات تجـارية بين البلدين ، وكانت مركبات الحرب والخيل أهم صادرات مصر ، كما أننا نشاهد نفوذ مصر فى ازدياد المظاهر الملكية عند اليهود• وترجع فخامة العمارة وأبهتها فى عصر سليمان بعض الشىء الى محاكاته المصريين دون شـك ، فشكل المعبـد ذاته فى جملته بأبهائه ومدخله ، والعمودين البارزين القائمين كالمسـلتين أمام المدخـل ، وكذلك الأسـدين القائمين عـلى عرش سـليمان ، كل ذلك يحمل الطابع المصرى • وفى الحقيقـة كان نظام ملكه منقـــولا عن الامبراطورية المصرية الكبرى •

والآن كيف نقارن بين هذين الشعبين ؟ لقد كانا على طرفى نقيض فى كل شىء • كان أحدهما يمثـل مجتمعا

مستقرا متماسك الأطـراف مترابط الصـلات ، تحت سلطان حكومة دينيـة دنيوية ، أما الآخر فشـعب قلق مضطرب يسعى الى بلوغ اليقين ولا يكاد يبلغه • ولم يكن بينهما يوما من الأيام ود موصـول • قال المـؤرخ المصرى مانيتون : ان اليهود انحـدروا من شـطر من الشعب المصرى طرد من مصر على أثر اصابته بالبرص والقراع • ولكن كم من الناس يقرأ مانيتون ؟ وعـلى أية حال فان كتبه قد ضاعت • ولم يرد ذكر اسرائيـل كثيرا فى سجلات تاريخ مصر ، ولكن اذا أردت النظر الى الجانب الآخـر رأيت أن العقيدة اليهـودية قد لحقت بالمسيحية ، وأن العهد القديم جزء من الكتابات الدينية المسيحية ، وأن الصورة التى وردت عن مصر والمصريين فيها قد انطبعت فى عقل كل طفل وكل رجل وامرأة فى العالم المسيحى جيلا بعد جيل ، بحيث لا يمكن أن تحـل محلها أية صورة أخرى تخالفها • زد على ذلك أنها ترد فى كتب سماوية ، وعلى أساس ما كان لتلك الصـورة اليهودية من أثر فى عقول الملايين من اليهود والمسيحيين وفى موقفهم العقلى والعـاطفى لا من مصر الفرعونيـة فحسب ، بل من مصر عموما يمكن القول بأن كتب العهد القديم قد عملت هى أيضا فى تكوين مصر ، وان كان ذلك على نحو خاص بها •

مصر والهيلينية

ما هى الهيلينية ؟ يرى بعض المؤرخين أنها ثقافة جديدة تتركب من عناصر اغريقية وعناصر شرقية ، بينما يرى آخرون أنها امتداد الحضارة الاغريقية الى الشرقيين • وفى نظر فريق ما هى الا استمرار المدنية الاغريقية الأصلية ، وهناك فريق آخر يرى فيها المدنية الأصلية نفسها معدلة بظروف جديدة •

ولندع هذا وذاك ونقول مع المؤرخ « تارن » ان « الهيلينية » ما هى الا وصف موجز لمدنية القرون الثلاثة التى بدأت بفتوحات الاسكندر الأكبر • والتى انتشرت فيها الثقافة الاغريقية بعيدا عن موطنها الأصلى ، ولهذا الرأى ميزته • وهى تناول الموضوع

موحدا ، ولكن ينبغي علينا أن نتذكر دائما أن القرون الثلاثة التى حددها الدكتور « تارن » كانت اتصالا لحركة توسع واسعة النطاق ، لا من جانب اغريق بحر ايجه فحسب ، بل من جانب أقوام آخرين اتصفوا بالاقدام والمخاطرة· وبخاصة الفينيقيين والأترورييين· كما يجب علينا أن نستذكر أنه حدث بعد تلك القرون الثلاثة أحداث هي جزء لا يتجزأ من قصة الحضارة الهيلينية ، ألا وهى · انشاء الامبراطورية الرومانية، ونشر الديانة المسيحية ·

أما الشطر الثانى من تعريف الدكتور « تارن » وهو اشعاع الحضارة الاغريقية من موطنها الأصلى ، فهذا أيضا مما يجب ادراكه جليا ، وأود أن أشرح فى هذا الحديث حقيقة ما كان من أمر هذا الاشعاع واتجاهاته وحدوده · وفى الحق سوف نلاحظ أن اشعاع الحضارة الهيلينية كان أبلغ أثرا وأجدى ثمرة بعد انقضاء القرون الثلاثة للعصر الهيليني بأمد طويل ، وفى أوضاع لم تخطر على بال الأسرات اليونانية المالكية التى ورثت الاسكندرية وكذلك لم تخطر على بال الأباطرة الرومانيين ، ولا في مواطن لم تصل اليها جيوشهم : لا فى فارس تحت حكم الساسانيين ، ولا فى

العراق تحت حكم الخلفاء العباسيين، ولا فى ظل مدارس التفكير الاسلامية والمسيحية ، ولا فى فنون الساسانيين والشرق الأقصى والفنون القبطية ، كمـا لم ينبعث هذا الاشعاع المثمر من الاسكندرية أو أنطاكية اللتين ظلتا تحت سلطان الاغـريق والرومان قرابة ألف سنة ، بل انبعث من مـدن غـير مطـروقة لا تخطر عـلى بال ، كجنديسابور فى غربى فارس أو واحة مرو فى حوض نهرى سيحون وجيحون ، أو من حران مدينـة الصائبة فى الجزيرة ٠

وأدوار الحضارة الهيلينية الأولى ـ كما حددتها ـ تتوافق مع زوال عصر الامبراطوريات القديمة ، ان لم تكن قد ترتبت عليه ، أفلت فيه نجوم وبزغت أخرى ، ودرست الامبراطوريات المصرية والآشورية والبابليـة الجديدة ، ودخلت فى خبر كان ٠ وعلا شـأن شـعوب فتية : هم الاغريق والفينيقيون والأترووريون والميديون واليهود والآراميون والرومان ٠ وقد امتد نشاط هذه الشعوب الى ميادين أوسع وأرحب من تلك الامبراطوريات القديمة ، وانطلقوا فى البحر والبر على السواء ، ولم يقفـوا عند حـد اقامة دولة قـوية فحسب ٠ ولم تكن فتوحاتهم عمـلا حربيا صرفا ، بل أضـافوا الى تاريخ

الانســانية فصــلا أكثر غنى بحــوادثه ، وأكثر اثارة للتأمل مما سبقه من الفصول ٠

الى جانب هؤلاء آتى قومنا المصريون ، وقد تقدمت بهم السنون ، وأثقلت كواهلهم أحداث المــاضى ، ولم يبدأوا حياة جديدة قادرة عــلى الخلق والابتكار ، ولم يتلقوا رسالة من الأمل الا عند مقدم المسيحية وظهــور الاسلام

وكان أول ما تلاقت مصر بالهيلينية عنــدما قــدم المغامرون الاغريق الى مصر تجــارا وملاحين وجنــودا مرتزقة ، وقد اســتخدمهم الفــرعون « بســاماتيك » وحلفاؤه برا وبحــرا فى قتال الأشــوريين والفــرس وحلفائهم من بعدهم ، وفى قتال الفينيميين ، وفى فتنهم وحروبهم الداخلية ، وقد استقر هؤلاء الاغريق فى مدن عسكرية ، وفى مدينة « نوقراطس » وفى بعض احياء المدن المصرية الصميمة ، ومنحوا حرية تنظيم مدنهــم وأحيائهم وفقا لأســلوب معاشــهم الخــاص ، وفى ظل قوانينهم وأنظمتهم ٠ وكانوا تجارا ــ أو على الأصــح وسطاء ــ كما كانوا جندا وملاحين ٠ وكانوا يمارسون مختلف الصـــناعات ولــم يكن بينهــم وبين المصريين ود موصول ، بل كانت تثور العداوة بينهم أحيــانا ٠

ولا عجب ، فالاغريق فى نظر المصريين لا يكادون يستقرون على حال ، أطفال قلقون ، وليسوا — فى الغالب — رجالا يمكن الوثوق بهم أو الاعتماد عليهم · والمصريون فى نظر الاغريق يرزحون تحت عبء الكهولة والوقار والخزعبلات الموروثة ، وكان شعور الاغريق نحو مضيفيهم الذين لم يرحبوا بهم ترحيبا كثيرا هو شعور التطلع والاستغراب المتفكه الذى لا يخلو من الاحتقار · وقد زار مصر مشاهير الاغريق كأفلاطون وسولون وهيرودوت ، ولكن يجدر بنا ألا نغالى فيما أثمره هذا اللقاء ، من أثر ثقافى متبادل ·

وفى هذه الأثناء كان سلطان فارس يمتد سريعا ، وهكذا بينما نشهد انتشار الهيلينية من الغرب نحو مهاد المدنيات القديمة · كان الفرس بنو عمومة الاغريق الأباعد يبسطون سلطانهم على ما يقع غربى بلادهم · وقد كان هذا التوسع الفارسى نقطة البداية للتبادل الثقافى المثمر مع شتى الشعوب فى سوريا · فعاد اليهود الى أوطانهم من المنفى واتسع المجال لانتشار الثقافة الآرامية ، وزاول الفينيقيون نشاطهم التجارى فى امبراطورية فارس · ثم حدث أن امبراطورية فارس جاورت المدن الاغريقية فى آسيا الصغرى ، ولم ترتح

لجوارها فكان أن تشعبت الحروب المشهورة بين الفرس والاغريق • في الوقت نفسه كان حلفاء فارس وهم الفينيقيون يشنون حربا شعواء ، ويصارعون الاغريق صراع حياة أو موت ، وذلك في أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط كافة ، وكانوا في ذلك الصراع متحالفين مع الأتروريين •

وقد أدى ذلك كله الى امتلاك فارس لمصر ، ولكنها أخفقت في اخضاع المدن اليونانية ، بينما اضطر الاغريق الى الانسحاب من غربي البحر الأبيض ، وتركه لسيادة قرطاجنة وهي المستعمرة الفينيقية الذائعة الصيت •

ولكن الآية لم تلبث أن انعكست تماما ، واستطاع الاسكندر الأكبر في خمس سنوات فقط أن يحطم امبراطورية فارس ، وأن يقود جحافله الى الهند • وكان هذا ايذانا بفتح صفحة جديدة في قصة الحضارة الهيلينية وفي تاريخ مصر ، وأن لمصر أن تعرف الاغريق حكاما عليها لا جندا مرتزقة أو تجارا صغارا بيد أن الحضارة الهيلينية التي دخلت مصر تحت حكم البطالمة وخلفائهم الرومان لم تكن الحضارة الأصلية التي ترد على خاطرنا كلما ذكرنا تلك الأسماء الخالدة : بركليس

وأفلاطون وسوفوكليس • لا ، لم يكن شيء من هـذا ، فالبطالمة لم يسمحوا بانشاء النظم الحـرة بين رعاياهم الاغريق ولم يتيحوا لرعاياهم المصريين فرصة المواطنة الحقة في دولة ذات قومية حقيقية ، بل على العكس من ذلك ، بقي الاغريق منعزلين وظلوا طائفة مميزة ، وهو أسوأ ما يمكن أن يحيق ـ آخر الأمر ـ بأية طبقـة من طبقات الشعوب • وظل المصريون يعملون ـ كمـا في التعبير الانجليزى ـ «حطابين محتطبين ومالئى الدلاء »، يعاملون معاملة الأجناس المستعبدة ، يكدون ويكدحون حتى يسقطوا من الاعياء ، حرموا من أن ينهض بينهم زعماء منهم ، وتركوا نهبا لقساوستهم المتعصبين • وقد أبقى الملـوك البطالمة وقياصرة روما عـلى السـخافات والمساخر الدينية ، عن سوء قصد ونية . وأصروا عـلى الامعان فيها ، وهم فى قرارة أنفسهم يحتقرونها بكل جوارحهم •

وماذا كانت نتيجة هذا كله ؟

كانت نتيجة تكوين مصر ، يصفها المؤرخ الرومانى « تاسيتوس » فيما يلى بقوله :

« هى ولاية من العسير الوصول اليها . تنتج الغلال، مشتتة الفكر والخواطر وسريعة الاستجابة لدواعى الفتن

تحت تأثير الخرافات والفوضى، تجهل القانون ولا تعرف خطط القضاء والحكم ! » ٠

وتكلم « بوليبيوس » ، مؤرخ روماني آخر ، عن شعب الاسكندرية فوصفه بالشعب الهجين ٠

ووصف « دون كريزوستوم » المتبحر فى علوم البيان والجدل والسفسطة ، الاسكندرية بأنها مدينة قد جنت بالطرب وسباق الخيل ، لا تشتغل بأى شيء جدير بعظمتها ومكانتها ٠

وانه لأمر يسترعي النظر انه مهما كد القارىء فى البحث عن تأثير مصر والمصريين فى أدباء الاسكندرية اليونانيين لم يجد شيئا يعتد به ، لا فى منثورهم ولا فى منظومهم على حد سواء ٠

هذا وان كانت قد نشأت فى ريف البلاد جاليات مختلطة من المصريين والاغريق متأثرة فعلا بالحضارة الاغريقية ، فان هذه الجاليات كانت من ضمة القدر والمكانة ، بحيث لم تستطع أن تنتج أو تثمر تلقيح الحضارة المصرية بالحضارة الهيلينية ٠ وقد تأثر اليهود أيضا بالحضارة الاغريقية تأثرا اقتضى أن تترجم كتبهم الدينية الى اليونانية لكي يستطيعوا فهمها والانفتاح

بها ، لكن اليهود ـ كعادتهم ـ شغلتهم أنفسهم عن أى شيء آخر • حقا كان العصر كله عصر استغلال وأثرة وعداوات للشعوب ، ولم يبد أى فريق ممن برزوا على مسرح التاريخ خلاله أحسن ما عنده •

وجاءت الثورة من الطبقات الدنيا ، فاضطر البطالمة ـ وهم يرزحون تحت ضغط الاعياء الاقتصادى ، ووقف تدفق المهاجرين الاغريق ، وفى سبيل مواصلة حروبهم مع الأسرات المقدونية المالكة الأخرى الى استخدام رعاياهم المصريين جنودا ، ولذا شرعوا فى التخفيف من وطأة حكمهم وأنظمتهم • وأضاف مقدم الرومان عمرا جديدا الى ذلك الطراز البغيض من الحضارة الهيلينية • ولكن الثورة التى بقيت تعمل فى الأعماق تمكنت فى النهاية من أن تقضى على ذلك الصرح الشامخ الذى شيده قياصرة روما • وكانت هذه هى مهمة المسيحية ، وما حققته من عمل مجيد •

أما عن تحرر مصر من الكابوس الهيليني الروماني. فهذا ما سأتناوله فى حديثى المقبل • وسنرى عندئذ أن الحضارة الهيلينية لم تعمل فى تكوين مصر عملا نافعا خيرا الا عن طريق ذلك العنصر الاغريقى الكامن فى المسيحية •

مصر والمسيحية

يدخــل فى تكــوين مصر عنصر مســيحى هام كل الأهمية ، وليس مرد ذلك الى أن المسيحية عقيدة فريق من أبنائها فحسب • بل لأن المسيحية فى عالم مســيحى هى التى كونت النظرة الروحية لأبنائها كافة •

وقد كانت مصر التى حمل اليها يوحنا مرقص المبشر بالانجيل رسـالة المسـيحية ـ كمـا جاء فى الـرواية المتواترة ـ خليطا من طـرازين مختلفين من البيئــة ، فمن ناحية كان هنـاك سـكان المـدن الذين يتكلمون باليونانية وبخاصة فى الاسكندرية وهم من الاغـريق والمصريين المشبهين بالاغريق واليهود ، وهؤلاء جميعا

تأثروا بالمؤثرات الدينية والثقافية الســائدة فى المدن الهيلينية فى القرن الأول من العهد المسيحى • وتأثروا من الناحية الأخرى بطراز البيئة المصرية الصميم • أما فى البيئة الحضارية التى كانت تضم ذلك الخليط من الطوائف الذين ذكرناهم ، فقــد كان القــوم فى تلك الآونة ينشــدون تلك الوحــدة التى كانت لأمــراء يستمدون وجودهم من وراء مختلف الآلهة وعباداتهم ، كما كان القوم يسعون أيضا نحو الحصول على طهــارة الأنفس ، وقد احتوت الديانة المسيحية ـ بالاضافة الى شخصية المسيح ـ على شيئين حيويين خلت منهما الديانة الهيلينية ، ففى تلك الديانة ، بوجه عام ، لم يكن يؤمن بعقيدة الخلود فى عالم آخر الا قلة من الأخيار المحسنين أو جماعة من المطلعين عــلى أسرار بعض الديانات ذات الطقوس السرية التى تعلق بها الناس اذ ذاك ، أى لم تكن عقيدة الانسانية عامة • ولم يكن حب الانســانية أساس أية عقيدة هيلينية ، كما لم تحمل واحدة منهــا رسالة الى البائس والمسكين والخاطىء والمسىء • وقد كان مذهب الرواقيين أقرب المذاهب الى ذلك المثل الأعلى الانسانى ، ولكننا لا نجده يفسح مكانا للمحبة • ولذا لم يكن للعاملين المرهقين المثقلين الا أن يضعوا الرجاء فى شىء آخر لم تستطع العقــائد الهيلينية أن تقــدمه

اليهم . ولكن ينبغي علينا أن نذكر في الوقت نفسه اسهام التفكير الاغريقي والتفكير اليهودي بنصيب وافر في ميدان الفلسفة والتصوف ، في المحاولة التي قام بها الآباء المسيحيون الأولون في مدينة الاسكندرية وغيرها ، لعرض الحقائق المسيحية ، اسهاما يقوم على النظر العقلي ، ويستسيغه العقل ، لا لتعليم المؤمنين المسيحية فحسب ، بل لتعليمها الوثنيين الذين أشربوا الفلسفة اليونانية أيضا ، ويكفينا أن نذكر في هذا الصدد مدرسة التعليم الديني الشهيرة بالاسكندرية ، والاسمين اللذين طبقت شهرتهما الآفاق : « كليمنت وأوريجين » . ويجدر بنا ألا نغفل أهمية ما أسدته اللغة اليونانية في سبيل نشر المسيحية ، فالكلمات الأساسية كافة في العقيدة المسيحية يونانية الأصل : المسيح (كريست) والتعميد « يابتيزم » والافخارستي والدياكون والقس (بريست) والمطران (بيشوب) والرسول (أبوسل) والانجيل .

وسأشرح بعد قليل ما كان لليونانية من أثر في تكوين اللغة القبطية والكنيسة القبطية .

أما البيئة الأخرى ، بيئة الايمان المصري الخالص ، والرجاء المصري الصميم ، فتختلف كل الاختلاف عن

البيئة الحضارية التى وصفتها . فقد كان شغلها الشاغل اقامة الشعائر التى تطلبتها عبادة أوزيريس . وتقوم تلك العقيدة على توجيه الايمان وتوجيه الطقوس للحصول على البعث بعد الموت بفضل أوزيريس ، الذى بعث حيا بعد أن أرداه الشر قتيلا ، ولذا كان هم المؤمن المصرى أن يؤدى الطقوس السحرية التى بها تغلب أوزيريس على الموت ، ولو ان الوازع الخلقى لم يغب عن المؤمنين المصريين فقد آمنوا أيضا بالحساب والميزان يسبقان نعيم الأخرى . فلم يكن عجبا اذن أن تلقى المسيحية وقد نادت بالمخلص الذى قهر الموت أذنا صاغية ولقاء حسنا . وكان من عظمة المسيحية أنها لم تجتذب اليها الطبقة الوسطى الدنيا والطبقة الوسطى العليا فحسب ، بل انها كانت العقيدة التى اعتنقها عامة الشعب فى الحضر والريف بحرارة وايمان .

ومن دلائل سرعة انتشار الرسالة المسيحية بين المصريين الحاجة الماسة الى ترجمة كتب العهد الجديد الى اللهجات القبطية السائدة فى البلاد ، ويبدو أن اللهجة المسماة « بالبحيرية » هى التى أصبحت اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية .

ولكن ، الى جانب الكتب المقدسة الرسمية ، نبتت

وفرة كثيرة من الكتابات الدينية غير الرسمية كان يقصد بها أولا وقبل كل شيء ايجاد مادة قراءة الشعب ، كسير العذراء ومناقبها ، وروايات تتعلق برسالة المسيح وعذابه • هذا ، وانا لنستطيع الاسهاب في موضوع استمرار الروح المصرية ــ وخاصة روح الفلاح ــ وطموحها وأمانيها الروحية ، ولكن يكفينا في هذا أن نقتبس تلك الجملة من كتابات هارناسك مؤرخ العقيدة •

« ان المسيحية قد لاءمت في مصر بين خصائصها وبين خصائص الدين القديم الأساسية لمدى أوسع مما شهدناه في أى بلد آخر ، اللهم الا اذا استثنينا بلاد اليونان • فان كان أكثر المصريين قد أصبحوا عند منتصف القرن الرابع مسيحيين ، فمرد ذلك الى أنهم خلقوا لأنفسهم دينا قوميا من المسيحية وذلك بأن لقحوا هذه الديانة ببقايا معتقداتهم القديمة وآمالها » •

هذا وبالاضافة الى تكوين اللغة القبطية بمعونة من اليونانية يجب ألا نغفل نمو الفن القبطي ، أو بمعنى أدق الفن المصرى المسيحى ، الذى وصلت بعض طرائقه وأساليبه من ايران عن طريق سوريا ، والذى يمتد انتشاره جغرافيا الى مدى فسيح يسترعى النظر ، فقد

ذكر « دالتون » فى الدليل الذى وضعه عن أقدم الآثار المسيحية والبيزنطية فى المتحف البريطانى انه عثر على آنيــة برونزية من طراز قبطى فى مقـــابر انجليزية سكسونية • هذا ولا يقل اشعاع الفن القبطى زمنيا عن انتشاره فى أقطار الأرض ، اذ أن طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الاسلامية وصناعاتها • وهذا دليــل آخــر عــلى أهمية العنصر المسيحى فى تكوين مصر •

هذا واذا كان الفن القبطى تعبيرا عن الخصـــائص الدينية لمصر المسيحية ، فان نشأة حياة الرهبنة ونموها لهى وجه آخر من أوجه التعبير ، يعتبره العلمـــاء أكثر ما ساهم به الشــعب المصرى بروزا وجــلاء فى تراث المسيحية •

وانا لنكتفى بالقول دون الدخول فى التفاصيل أن الرهبنة بدأت بفرار الأفراد الى البرية هربا من شرور العالم ورذائله • ثم أخذت شهرة بعض الصالحين النساك تجذب النــاس الى العيش بجــوارهم ، يلتمســـون منهم الهداية • وكان ذلك حال « انطانيوس » الشهير • ولكن يرجع الفضل فى تنظيم الرهبنة الى عبقرية «باخوميوس». فقد كان للقواعد التى وضعها تأثير بالغ فى نمو أنظمة

الرهبنة فى المسيحية الغربية وغيرها ، ولكن الرهبنة فى مصر لم تكن أمرا روحانيا صرفا ، بل كانت عاملا فى التطور الاجتماعى ، والتطـور الدينى ، فأثرت تبعـا لذلك ، فى مصائر البلاد بأجمعها ٠

وقد انتظمت المسيحية فى كنائس شكلت على طراز الأنظمة الرومانية الامبراطورية ، وتركزت الكنـائس الرئيسية فى مدن اشتهرت فى التاريخ ، كالاسكندرية وأنطاكيـة والقسـطنطينية وروما ٠ وكان من شـأن اختـلاف الأمزجة القـومية والمنافسـات بين الأمم والأشخاص أن نشـأت اختـلافات مذهبية ، فنبت ذلك النقـاش وذاك الجـدل الذى شـاع وذاع بين آريوس وأثناسيوس فى القرن الرابع ، وانتهت تلك الجولة بأن قرر مجمع نيقية ادانة أريوس بالالحاد (الهرطقة) ، كما نشب خلاف آخر حـول الأقاليم كان من أثره انحيـاز الكنيسة المصرية ـ ومعها فى ذلك كنائس شرقية أخرى ـ الى رأى فى طبيعة السيد المسـيح يعـرف بالمـذهب المنوفيسى ، أى الطبيعة الواحدة ، وانحازت الكنيسـة الامبراطورية الى قول آخر ٠ وعمل هذا النزاع المذهبى وما صحبه من اضطهادات واحن واضطرابات وتدهـور اقتصادى على اضعاف الصلة التى كانت تربط البـلاد

بالامبراطورية الرومانية عند حدوث الفتح الاسلامى فى القرن السابع ·

وقد فسر المذهبان « المنوفيسى » و « النسطورى » على أنهما يمثلان احتجاج الشعوب الشرقية على السيطرة الهيلينية السياسية والاقتصادية والثقافية - وقد أشار هارناسك ، الحجة الذى سبق لنا الاقتباس منه ، الى أن بطارقة الاسكندرية لم يقتصر طموحهم على السيطرة على الكنائس الرئيسية الأخرى ، بل تعدى ذلك الى التطلع الى أن يجعلوا من مصر دولة دينية مستقلة · ويؤيد هذا ما ذهبت اليه الآنسة رويار المؤرخة الثقة للادارة البيزنطية من أن العرب الغزاة لم يروا فى مصر احدى ممتلكات بيزنطة ، بل بدت لهم مملكة تكاد تكون مستقلة · هذا وبينما كان رهبان أديرة مصر من أبناء الفلاحين يؤيدون الكنيسة القبطية فى صراعها ضد أولى الأمر الحاكمين الأجانب ، موظفين مدنيين وكنسيين ، فانه لا يمكن القول بأن تلك الأديرة كانت عنصرا من عناصر النظام أو الاستقرار فى حياة الكنيسة الوطنية ذاتها ·

وبالاختصار هذا هو مجمل القول فى هذا الموضوع

الكبير ، وسأحاول فى حديثى التالى وصف ما خلفه تراث مصر المسيحية لمصر الاسلامية ٠

وآمل أن أبين حينئذ أن خير طريق يسلكه اليوم مسلمو مصر ومسيحيوها على السواء لكى يفهموا أنفسهم هو أن يعملوا على فهم الاسلام والمسيحية على حد سواء ٠

مصر والاسلام

غزت جيوش الخلافة مصر سنة ٦٤٠ بعد الميــلاد ، وقطعت العــلاقة التى كانت تربطهــا بالامبراطــورية الرومانية الشرقية ، وبذا أصبحت مصر جزءا من دار الاسلام · الا أن العملية التى أصــبح بهــا المصريون مسلمين يتكلمــون العربيــة تمت بالتــدريج ، اذ جاء انتشار الاسلام عن طريق اعتناق سكان البلاد المسيحيين الاسلام جنبا الى جنب الا أن انتشار اللغة كان أشــمل وأتم من انتشار الديانة فهى لغة الأهلين كافة ـ المسلمين منهم والمسيحيين ـ على السواء ·

ونستطيع أن نقسم تاريخ مصر الاسلامى على وجه العموم الى فترتين مختلفتين كل الاختلاف فى الطول :

فالأولى تستغرق من منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر ، بينما تشمل الثانية السنوات المائة والخمسين الآخيرة . وقد شهدت الفترة الأولى تكون ثقافة اسلامية بلغت قدرا كبيرا من الاستقرار والتماسك سواء في أيام ازدهارها أو في عصر انحطاطها ، وسواء نظرنا اليها من وجهة بنائها الداخلي أو من وجهة علاقاتها الخارجية . أما الفترة الثانية فقد شهدت اخضاع تلك الثقافة لدوافع وحركات من الشد والجذب ، كانت ذات تأثير بليغ في كيانها . ولما كانت اتصالاتها بالحضارة الغربية هي المسئولة عن حدوث عوامل التغير — فانى سأتناول الفترة الثانية من تاريخ مصر الاسلامية في حديثي التالى — عن مصر والغرب — خاتمة هذه الأحاديث .

أما هذا الحديث فيتناول نشأة الثقافة الاسلامية ، وبلوغها كمال نموها . وعلى أن أبدأ ببناة تلك الثقافة . فان وقود العرب على البلاد كان ايذانا ببزوغ فجر عملية جديدة من عمليات بناء الأمة المصرية فاجتذب الريف المصرى رجال الصحراء اليه — ومازال حتى الآن يجتذبهم . وارتباط مصر بدار الاسلام فتح أبوابها — وبخاصة أبواب مدنها — للمستوطنين من البلدان الاسلامية الأخرى ، وبخاصة من بلاد المغرب

ومن فلسطين وسوريا ، وقيام دول من المماليك ، واعتماد تلك الدول على جيوش مؤلفة من أبناء الرق أديا الى قدوم جموع من الجوارى والعبيد من مختلف العناصر والأجناس من أتراك وشراكسة وصقالبة ومن اليهم • أضف اليهم مستوطنين من شتى السلالات الافريقية • والآن نتساءل الى أى مدى تمثلت الأمة تلك العناصر ؟ اذا اتجه النظر الى أهل الريف فاننا نجدهم ـ قديمهم وجديدهم ـ يستوون فى الانتماء الى طائفة من الفلاحين ، بيد أن بين الفلاحين فروقا لا تخفى ، ففلاحو الدلتا مختلفون عن فلاحى الصعيد ، بل الاختلاف ظاهر من مديرية الى أخرى • أما فى المدن فكان القادمون الجدد أميل الى الارتباط ممن سبقهم من أبناء بلادهم ، يزاولون ما يزاول هؤلاء من حرف أو أعمال ، ومن وفد منهم الى مصر للتعلم ، فانه يلحق بمعاهد الأزهر « أروقته » المخصصة لبنى قومه أو لأهل مذهبه ، ومن جاء للتجارة فانه يستقر فى السوق المخصصة لسلعه ومتجره ، أو سوق «الأمة» التى ينتمى اليها • ومع ذلك فلم تكن هناك حواجز تحول دون الاختلاط ، فاختلط المسلمون الوافدون بالمسلمين من أهل البلاد ، كما اختلط المسيحيون الذين جاءوا من الشام بالأقباط وغيرهم •

أما الطائفة التى بقيت بمعزل عن الأهلين فقد كانت طائفة التجار الوافدين من أوروبا ، وقد ظلت طائفة قليلة العدد نسبيا حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وكان مجال نشاطها قاصرا على تجارة الجملة . ولذا لم تتصل الا بقليل من أهل البلاد اغلبهم من الرعايا اليهود والمسيحيين ، ولم يكن للاوروبيين حتى نهاية القرن الثامن عشر أية رسالة ثقافية ، كما أنهم لم يتلقوا شيئا ما عن الأهلين ، الى جانب ذلك نشطت التجارة مع بقية العالم الاسلامى ومع تلك البلدان فيما وراء البحار ، فى قارتى افريقية وآسيا التى وصل اليها نشاط التجار العرب وسفنهم ، وهذا الاتصال المستمر المستديم بالعالم الخارجى هو الذى يميز تاريخ مصر الاسلامية عن تاريخ مصر المسيحية ، ومما يفسر هذا الفرق بين التاريخين أن مسيحيى مصر (فيما عدا فئة قليلة من العلماء) لم تجمعهم بالعالم المسيحى فى الشرق والغرب لغة مشتركة كاللاتينية والسريانية ، وكانت لغتهم القبطية وقفا عليهم وحدهم ، بينما كان لدى مسلمى مصر ولسانهم ــ العربية ــ وسيلة المشاركة فى حركة الثقافة الاسلامية .

ولكن هل تعنى تلك المشاركة أن ليس لثقافة مصر الاسلامية ذاتية خاصة بها مميزة لها . وللاجابة على

هذا السؤال نقول : انه كان لمصر ـ شأنها فى ذلك شأن الأقاليم الكبرى لدار الاسلام ـ ذاتيتها ، ولـكن ، يجب أن نتذكر دائماً أن احتفاظ مصر بذاتيتها لم يكن من شأنه النزوع نحو العزلة او الانطواء على النفس ، بل كان يتجه نحو الملاءمة بين العناصر الثقافية المستوردة وبين بيئة خاصة ، وهنا نقرر ما كان للعناصر المسيحية المصرية فى البلاد من الأثر الكبير فى اجراء تلك الملاءمة سواء منهم فى ذلك من احتفظ بمسيحيته أو تحول الى الاسلام ، فقد علموا الوافدين على البلاد كيف يعيشون تلك العيشة التى تلائم خير الملاءمة ظروف مصر ، من حيث اساليب الزراعة وطرائقهـا ، ونظام حيـازة الأراضى ومسحها وريها ، وما يستتبع هذا كله من نظم ادارية ، وكذلك الصناعات القائمة على استخدام المواد الأولية التى بين أيديهم عـلى أحسن ما يتفق وأحـوال البلاد الطبيعية ، هذا الى جانب وضع الانماط والرسوم التى ترضى أذواق الاهلين المتوارثة • أما عن مساهمة الاقباط فى الجانب العقلى من الثقافة الاسـلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه ، وانى لأرى أن من الأسـلم لنا أن ندمج العنصر المسيحي المصرى الخاص فى مجموع ما ساهم به الفكر الهيليني والفكر السريانى المسيحى فى بناء صرح الثقافة الاسلامية عامة ، ولا أستثنى من

هذا القول الا شيئين ـ أولهما : أن ثمة ظروفا مصرية محلية أثرت فى اتجاهات معينة للفقه الاسلامى . وثانيهما : هو أثر مساهمة الأدب الشعبى المصرى القديم فى الأدب الشعبى العربى .

ونتناول بعد ذلك باختصار موضوع « الذاتية » المصرية فى حركة التاريخ الاسلامى ، ونظروا الى أن هذا الوجه من أوجه الثقافة هو اكثر استجابة لأثر البيئة الجغرافية ، فاننا نلاحظ أن تطور مصر الاسلامية يجرى على نسق خاص بها . بيد أن هذا الاتجاه كان فى الوقت نفسه سريع التأثر بمبادىء الاسلام الأساسية، وبالحركات الاسلامية عامة ، كما حدث أحيانا أن مصر لم تعد أن تكون مجرد أساس اتخذه من اتخذه للعمل على تحقيق غايات تخص مصر وغير مصر .

هذا وبينما أقرر صحة هذه التحفظات فانه من الواضح الجلى أن تاريخ مصر سار وتطور وفقا لخطوط تختلف اختلافا بينا عما سار عليه تاريخ العراق ، أو تاريخ المغرب . ولم يكن شأن مصر ولاية ممتازة من ولايات الخلافة الاسلامية أو الدولة العثمانية شأن الولايات الأخرى ، وكذلك لم يكن شأن مصر مقرا لخلافة شيعية ، أو دولة من دول المماليك شأن الممالك الاسلامية الأخرى .

والآن يجدر بنا أن نتساءل : ترى كيف يمكن أن نقارن الثقافة الإسلامية التي نمت وترعرعت في بلادنا بثقافة البلدان الإسلامية الأخرى ؟ ان الرد على ذلك يمكن أن يلخص في العبارات الآتية :

ان ثقافتنا الاسلامية بلغت مستوى وسطا ، فلم ترق الى ما سمت اليه في ديار أخرى ، كما لم تهبط الى ما هبطت اليه في ديار أخرى . وان أصالة ثقافتنا الاسلامية لترجع الى تماسكها الشامل وارتباطها المحكم أكثر من رجوعها الى أى وجه خاص من أوجه الحياة الثقافية . فهى ـ مثلا ـ لم تنتج من الشعر الرفيع ما أنتج العراق ، كما أن التفكير الفلسفى لم يزدهر عندنا بقدر ما ازدهر فى الأقطار الشرقية من العالم الاسلامى . حقا اننا أسهمنا بقدر ذى شأن فى نمو علوم اللغة والدين ، ولكننا لم نخرج الى الوجود ذلك النوع من الآراء الذى تقوم عليه المدارس والمذاهب . وقد ينطبق هذا القول على فن العمارة ، فانتاجنا جيد الا أن الأسس تصلنا من الخارج . أما الوجه الثانى المميز لثقافتنا الاسلامية فهو بقاؤها على الزمن واستدامتها أطول مما دامت فى البلدان الاسلامية الأخرى . أضف الى ذلك أنها لم تتلق ضربات قاصمة ، أو تصب بنكبات كالتى حلت باخوان لنا فى الدين ، فمن ذلك أن مصر

لم يصبها شيء يمكن أن يقارن بما حل بالمغرب علـــى أيدى القبائل البدوية ، أو بما لقيه الاسلام فى اسبانيا من ابادة وافناء ، أو بما حــل بالشــام والعــراق وما يجاوره من تدمير وخراب على أيدى المغول .

ولم يبــدأ صرح حياتنــا الثقافيــة فى الاهتزاز والتخلخل الا عندما دق الغرب على بابنا فى نهاية القرن الثامن عشر بحملة جيش من الغزاة الفرنسيين ، وسوف أتناول شرح ذلك فى حديثى التالى عن «مصر والغرب» .

مصر والغرب

هذا آخر حديث فى سلسلة أحاديثى ، وهو يتناول تطور المجتمع المصرى فى السنوات المائة والخمسين الأخيرة • وهى فترة توثقت صلات البلاد خلالها بالغرب • وقبل أن أبين لكم الحقائق الكبرى لهذا الاتصال ـ كما أراها ـ أود أن ألفت أنظاركم الى بعض الاتجاهات التى تسترعى النظر ، ولا سبيل الى اغفالها عند بحث هذا الموضوع • وأولى تلك الاتجاهات هى أن المؤلفين فى هذا الموضوع يكتبون ، كما لو أن الشعب المصرى يتعين عليه أن يختار موقفا حاسما يلتزمه دون رجعة •

وعلى أساس هذا الافتراض يشرع من نصبوا

انفسهم ناصحين لنا فى الافضاء الينا بما يجب علينا اتباعه ، فمنهم من يشير بان نسير على نهج الحضارة الغربية فى صميمها ، او فى بهرجها ، ومنهم من يعاوده الحنين الى عصر رمسيس الثانى ، أو الى الجمع والخلط بين محاسن ما يمكن أن نلتقطه كافة من هنا أو من هناك •

ولا حاجة بى الى أن أبين فساد هذا الافتراض ، حقيقة أنه قد تحدث ظروف فى تاريخ الجماعات يتعين فيها اتخاذ قرارات حاسمة ، ولكن لم يحدث أبدا ان طرأ موقف كان لزاما فيه الانحياز الى رأى نهائى ، أو موقف محدد المعالم لا رجعة فيه •

فالجماعات فى تطور دائم ، وكل ما فى الأمر أن سرعة التطور تزيد فى بعض الأحايين عنها فى بعضها الآخر •!

والاتجاه الثانى الذى يميل اليه بعض المؤلفين هو الاعتقاد فى أن ما يعترى مجتمعنا من أزمات ظاهرة خاصة بنا ؛ والصواب أن الشعوب الأخرى تشترك معنا فى هذه العلل ، ومنهم الغربيون أنفسهم ، • اختر أية مشكلة أو أية مسألة يختلف عليها الناس : مشكلة السكان ، أو الأسرة أو الطبقات أو مدى تدخل الدولة ،

أو مسائل التصنيع ، أو الاقتصاد الزراعي ، أو المسائل المتعلقة بالديموقراطية بنوعيها الشعبي والبرلماني ، أو تجريد الدولة من الصبغة الدينية ، أو السيادة القومية المطلقة والنظام الدولي . ليس في هذه المسائل ما هو خاص بمصر أو بالمغرب أو الشرق . فكلها مسائل نابتة من صميم العصر الذي نعيش فيه . وكل ما هنالك أن هذه المسائل ومثيلاتها تتخذ أوضاعا مختلفة في مختلف المجتمعات ، كما أن من هذه المشكلات ما قد يكون أكثر ضغطا وأشد الحاحا في بعض المجتمعات عنه في بعضها الآخر .

وفي المقام الثالث ميل الكتاب الى أن يضعوا مصر مواجهة لمجتمع غربي ثابت . والواقع أنه قد طرأ على الغرب من التحول خلال المائة والخمسين سنة الماضية ما هو أبعد مدى مما انتاب مصر خلال تلك الفترة . ومن رأيي أن توهمهم وجود غرب ثابت لا يتحول أو يتحرك ، أو على الأقل فيما يختص بعلاقته بنا ، يرجع الى سببين :

أولهما : أن السياسة التي تسير عليها الدول الأوروبية نحونا بالفعل لم تكن عادة مما يتجاوب تجاوبا ناجزا وما كان يحدث في أوروبا من تطور

اجتماعى · لا ، بل بلغ الأمر أن كانت تلك السياسة تتعارض فى بعض الأحايين تعارضا بينا ومبادىء العلاقات الاجتماعية السائدة فى أوروبا ·

وثانى السببين : هو أن الأثر الذى تتركه فترة من فترات الاتصال بأوروبا فى أذهان قومنا قد يبقى طويلا بعد أن تطوى حوادث تلك الفترة فى سجل النسيان · وأتخيل ، على سبيل المثال ، أن مرور الفرنسيين من جند ومدنيين ـ خلال احتلالهم لبلادنا عند نهاية القرن الثامن عشر ـ فى مدننا وريفنا اثر فى آراء المصريين كافة ، لجيل أو لجلين، عن الفرنسيين لا بل عن الفرنجة أو الاوروبيين كافة ·

وقد كان هؤلاء الفرنسيون أول الغربيين الذين اتصلنا بهم فى العصور الحديثة · وقصة غزوهم مصر، اذا نظرنا اليها من الناحية الضيقة المحدودة ، لا تعدو أن تكون فصلا من فصول المنازعات والمنافسات التى شبت فى عصر الثورة ، وبخاصة المنافسة بين انجلترا وفرنسا ، ولكن اذ نظرنا الى الأمر من ناحية أكثر عمقا وأبعد مدى ، رأينا أن الحملة الفرنسية كانت نتيجة لثلاث ثورات أوروبية : الثورة العلمية ، والثورة الصناعية ، والثورة الفرنسية · فالثورة العلمية بعثت

نظرا جديدا فى عالم الطبيعة والمجتمع الانسانى ، والثورة الاقتصادية بعثت دوافع جديدة لوضع موارد الأرض كلها تحت تصرف الرجل الأوروبى ، والثورة الفرنسية بعثت ادراكا جديدا لمبادىء التنظيم القومى. كانت هذه الأشياء العوامل التى فتحت عهدا جديدا فى تاريخ التوسع الغربى . فكان لابد للأوروبيين من أن يملكوا أوطان الجماعات الاسلامية والآسيوية أو ان يسيطروا عليها ، أو أن يوجهوها ليبعثوها من جديد فتولى وجهها نحو الغرب وتسير فى فلكه ، وتصبح بذلك شيئا نافعا للغرب .

ومعنى نفعها للغرب عند الغرب أنها عندئذ تنفع نفسها أيضا وتنفع العالم بأسره . بيد أن اندماج تلك الشعوب فى الغرب اندماجا كاملا لم يكن مستحبا لسببين ، اذ أنه يمكن ان يعتبر مناقضا للمواثيق التى تعهد بها القوم أن يحترموا عقائد المصريين الدينية وعاداتهم ، وثانيا : أنه لم يكن هناك سبيل الى تحقيقه . وحتى لو كان ذلك ميسرا لما كان فى جانب مصلحة الحكام الأوروبيين أو المحكومين .

وكان الاحتلال الفرنسى قصير الأمد بيد أن نتائجه وعواقبه كانت بعيدة الأثر فى التاريخ ، اذ كان هذا

الاحتلال حافزا لولاة مصر في البدء على عملية عمارة وانشاء بوسائلهم وطرائقهم الخاصة ·

وقد تشكلت تلك الطرائق وفقا لآراء الحكام الشخصية فى السياسة والاجتماع ومثلهم العليا، ووفقا لطبيعة الظروف المحلية ، مادية كانت أو أدبية ، فضلا عن تأثير القيود المفروضة على سلطتهم الفعلية · وهذه القيود فرضتها السيادة العثمانية ومصالح الأوروبيين وما كان يجرى بينهم من منافسات · ولذا كان الانشاء واسع النطاق ومحدودا فى آن واحد ، كان يتسم بالفخامة والضعة معا ، وكان أن أورثنا ذلك العهد من تاريخنا مبادىء استقرت أساسا لكياننا القومي، أوردها فيما يأتى :

أن مصر هى القلب النابض لمجال حيوى يمتد الى ما وراء حدودها ، أن التجديد شعار المجتمع، أن الموارد تعبأ ، وأن المجتمع يخضع لسلطان موحد ·

ولكن كان ينبغى لكى تؤتى هذه المبادىء ثمرتها أن يعامل الفرد المعاملة الخليقة بالمواطن ، فان اخضاع الشعب لسلطة عليا لا تخضع لسلطان القانون كان معناه اخضاعه لقوة غشوم مدمرة توجهها الأهواء ، كما أن تعبئة موارد البلاد دون وازع من الانصاف أو التقدير

للاعتبارات الانسانية لم يؤد الى ثراء الأمة ورخائها ، بل أدى الى تقوية شهوة القلة الوطنية والأجنبية المستغلة ، واشباع نهم طائفة لا قلب لها ولا ضمير ، كما أن سطحية نظام التعليم واتجاهه نحو أهداف نفعية ضيقة لم ينشىء فريقا من « الصفوة الفاضلة » بل خلق أدوات ادارية فاسدة لا تحسن أداء ما عهد اليها به •

ويجب أن أضيف الى ذلك القصور وتلك العيوب ، مشكلات الأزمات الدبلوماسية والمنافسات الدولية وما يصحبها من قلق واضطراب ، ومشكلات رأس المال الأجنبى والمستوطنين من الأجانب ، الساعين الى شق طريق الرزق فى البلاد •

لقد انهار النظام الخديوى فى العقود الأخيرة من القرن الغابر ، ومن ثم سارت سفينة الدولة على غير هدى وفى مهاب الريح حتى ارتطمت بالصخور • ونجحت دولة أوروبية فى فرض سيطرتها وجمع أزمة الأمور فى يديها ، هى انجلترا :

ولو كان لسياسة الاحتلال البريطانى فى مصر أن تتخذ لها شعارا لقلت أنها جملة [illegible] وردت فى كتابات كرومر ، ألا وهى : « بقدر معلوم » • فيجب أن يكون لنا نصيب كل شىء بقدر معلوم ، نصيب من

الاستقلال ، ومن الولاية العثمانية ومن الصلة ببريطانية ، ونصيب فى السودان ، ونصيب من الحكم الشخصي ، ومن أنظمة الحكم الذاتي ، ونصيب من الرقى الثقافي والاقتصادى وهلم جرا ٠

ولم يكن الهدف الرئيسى الذى وضعه كرومر نصب عينيه أن يجعل مصر للمصريين ، وقال انه لم يكن واثقا مما يعنى ذلك ، بل مصر لسكانها كافة ٠ ومن الجلى أن مصر من هذا النوع لابد لها من وجود قوة تقوم بدور الوساطة فى النزاع المحتوم بين الأجناس والمصالح ، أى تقوم فى الواقع بدور الرجل القوى الفيصل الذى شهدته مدن القرون الوسطى المضطربة ، وبالطبع لابد أن تكون تلك القوة هى انجلترا ٠

بيد أنه غاب عن بال كرومر تماما أن التسوية النهائية لأمر مصر ستكون مع شعب مصر ، وهذا هو المعنى الذى انطوت عليه ثورة عام ١٩١٩ ٠ بيد أن الآمال التى ولدتها ثورة ١٩١٩ فى بعث قومى جديد لم تتحقق ، فلم تكن لدينا شجاعة الايمان بما كنا ننادى به ونجهر ، فمنحنا الشعب كلاما ، وكنا أنانيين ، وكانت المعاذير التى كنا نتذرع بها لاخفاقنا أقل مما كان يلتمسه آباؤنا عام ١٨٨٢ لأننا شيدنا على ما تركوه

وراءهم ، وكان فى وسعنا أن نتعلم من أخطائهم ٠ ولكن مع ذلك لا ينبغى أن نغفل عما واجهنا من صعاب، فقد كنا نسعى جهدنا فى أن واحد وقد حاولنا القيام بذلك ، بينما كنا نخشى أن تمتد الى شعبنا الدعوات الأوروبية الجديدة القائمة فى الروسيا وايطاليا وألمانيا ، فترددنا فى تعبئة مواردنا الحية والمعنوية ٠ وترتب على ذلك أن حذونا حذو كرومر ، اى اننا حاولنا الحصول على شيء من كل شيء بقدر معلوم ٠ شيء من المحافظة على التقاليد مع مسايرة روح العصر ، وقدر من الراسمالية ، وقدر من الاشتراكية على السواء ، وقدر من الزهو والتظاهر ، مع مقدار من عدم الاعتداد بالنفس ٠

وقد شهدنا كما شهد آباؤنا « انهيار الحكم » مع هذا الفارق ، وهو أن انهيار ١٨٨٢ أعقبه الاحتلال البريطانى ، بينما الانهيار الذى حدث فى زماننا خلف لنا مولد الجمهورية المصرية ٠ وان مجرد الاسم فى ذاته ليحمل فى طياته برنامجا كاملا للانشاء على أساس المبدأ القائل : بأن أكبر مقدار من السعادة يجب أن يحقق لأكبر عدد من الأهلين ٠ وان خير تعريف تتخذه الجمهورية المصرية لنفسها فى العصر الذى نعيش فيه لهو ما قاله الفيلسوف « برك » :

« لا يجب اعتبار الدولة شيئا أفضل من كونها اتفاقا على المشاركة فى المنافع ، بل هى مشاركة فى العلوم كافة ، ومشاركة في الفنون كافة ، ومشاركة فى الفضائل كافة ، وفى الكمال كله » .

فهرس

● صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ١
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد انيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى
١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب
١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان
١٤ ـ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف
١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسنى الخربوطلى
١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الأصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى احمد شلبى
١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات
١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود
١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. احمد محمود صابون
٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد انيس
٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ١
توفيق الطويل
٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٢ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيق الطويل

٢٤ ـ الصحافة الوفدية
د· نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى
ترجمة : د· عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د· سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين
د· سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د· حلمى أحمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د· خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د· يونان لبيب رزق

٣٥ ــ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ــ المجتمع الاسلامى والغرب جـ ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ــ الشيخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح

٣٨ ــ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى
والاجتماعى فى العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ــ قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميــــل عبيـــد

٤٠ ــ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ــ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعــت السعيـــد

٤٢ــ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤٠٥/ ١٩٩٠
ISBN — 977 — 01 — 2641 — 1

هذا الكتاب :

يعد بانوراما شاملة لتاريخ مصر عبر العصور من منظور فلسفي ، ربما كان المؤرخ محمد شفيق غربال متأثرا فيه بأستاذه المؤرخ والفيلسوف البريطاني « أرنولدتوينبى » الذى لم يقف عند عصر معين أو بلد معين أو حضارة معينة وإنما درس كل الحضارات .

وهذه الرؤية التى قدمها المؤرخ يتعذر على غيره من المؤرخين القيام بها لارتباطهم بتخصصاتهم العلمية فى الحقب والعصور الزمنية المختلفة .

وقد دُعِىَ المؤلف لتقديم رؤيته فى عشرة أحاديث عن تاريخ مصر باللغة الإنجليزية وجهت من الإذاعة المصرية إلى العالم الخارجى ، وقام بتعريبها بمعاونة محمد رفعت وصدرت فى كتيب عام ١٩٥٧ .

وقد رأينا إعادة طبع هذا العمل التحليلى الإعجازى لما له من أهمية علمية جليلة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب